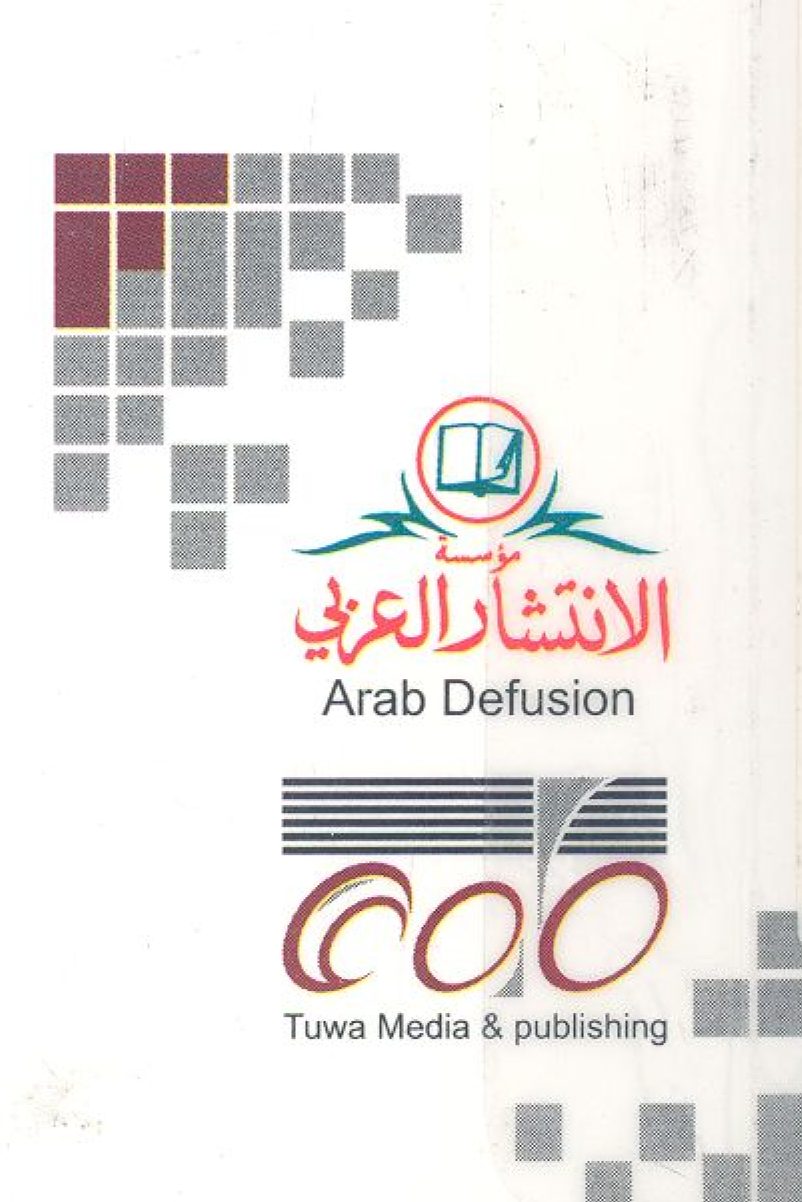


أنس زاهد

Anass Zahid

هكذا سكت نيتشه
هكذا تكلم زوربا

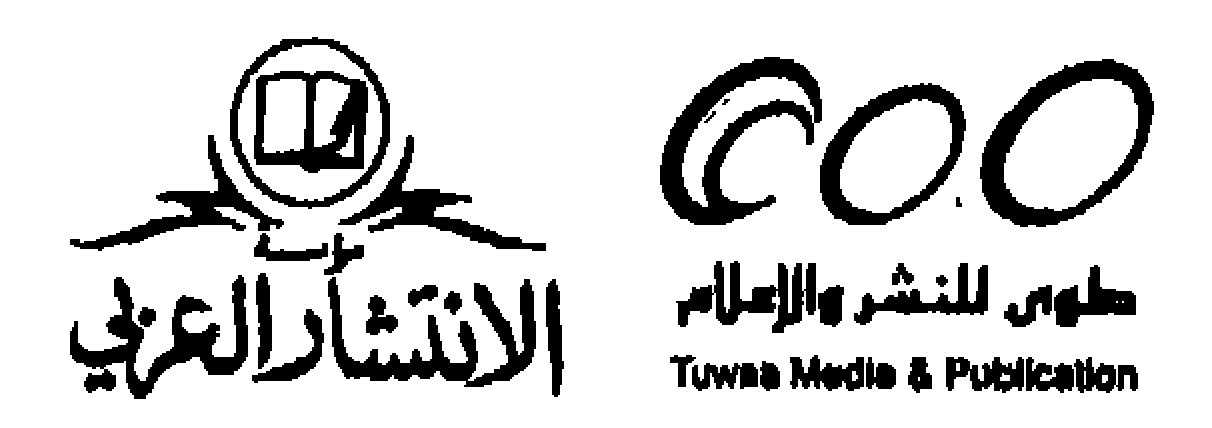


هكذا سكت نيتشه
هكذا تكلّم زوربا

أنس زاهد

هكذا سكت نيتشه
هكذا تكلّم زوربا

دراسات



هكذا سكت نيتشه
هكذا تكلّم زوربا

أنس زاهد

دراسات



TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email : tuwa@london.com



ص.ب. 113/5752 ر.ب. 1103 2070
هاتف: 009611659148، فاكس: 009611659150
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
الطبعة الأولى (2007 م)

ISBN: 978-9953-476-07-1

الفهرس

المقدمة

هذا الكتاب ليس دراسة نقدية بالمعنى الفني أو الاحترافي للكلمة ، وبمعنى أكثر دقة فإن هذا الكتاب لا يضع ضمن اهتماماته دراسة العناصر الفنية لرواية (زوربا) للكاتب اليوناني نيكوس كازينتزاكس ، كبناء الشخصيات والبنية الروائية وما إلى ذلك من أمور فنية . الكتاب هو محاولة للغوص في الفكر الزوربي الذي يمثل الفطرة الإنسانية النقية في أشد حالات تألقها .

ومن ناحية أخرى فإن الكتاب يسعى إلى عقد مقارنة أو مقابلة بين الفكر الزوربي الذي قلت قبل قليل إنه يمثل الفطرة الإنسانية الخالية من الشوائب الاجتماعية والثقافية ، وبين الفكر النيتشوي . . وبالتحديد فكر فريدريك نيتشه الذي تجلى على أكمل وجه من خلال كتابه الأهم والأشهر : (هكذا تكلم زرادشت) .

ولكن لماذا نيتشه مقابل زوربا . .؟ لماذا نيتشه دون غيره؟

الجواب هو أنني كنت ولا أزال أعتقد أن كتابات الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه هي التجسيد الأعظم لقدرة العقل البشري على الإبداع . . العقل البشري الخلاّق الذي لا يتوقف عند حدود

ولا يرتهن إلى محظور ولا يلزم نفسه باتّباع أي عرف أو بالتسليم بـأي من البديهيات . . والـحـدود والـمحـظـورات والأعـراف والبديهيات ، هي أعتى أنواع القيود التي يمكن أن تكبّل العقل البشري .

إن وجه الشبه الأكبر بين نيتشه وزوربا رغم الاختلافات الشاسعة التي تفصل بين الاثنين ، هو أنهما قد بلغا من التفوق ما يجعل من الحياة بكل جمالها وجلالها ، تتوارى أمامهما خجلاً لأنها أضيق من أن تستوعب مطالب وطموحات هذا الثنائي المتفرد ، الخارج عن وعلى كل سياق .

لقد أبدع نيتشه أهم كتبه «هكذا تكلم زرادشت» عندما خرج تماماً من وعلى كل سياق ، فكتب نصاً منفلتاً لم أعثر فيه على تأثير أحد من سابقيه سوى المسيح بالإضافة إلى الأثر المحدود الذي تركه الفيلسوف الألماني شوبنهاور . لم يتأثر فكر نيتشه وخصوصاً في هذا الكتاب ، بأيٍّ ممن سبقه من الفلاسفة والأدباء ، لأنه في انفلاته كان قد تجاوز الجميع بما فيهم الحياة نفسها . أليس نيتشه هو القائل من خلال هذا الكتاب :

«لقد أصبح كل شيء صغيراً ، فإنني حيثما أوجه أنظاري لا أرى غير أبواب خفضت أرتاجها فإذا شاء أمثالي أن يجتازوها تحتّم عليهم أن ينحنوا .

أيطول بي الزمان حتى أعود إلى وطني حيث لا أرغم على الانحناء أمام كل صغير؟» .

لم تلبِّ الحياة مطالب نيتشه ، خذلته بمحدوديتها إزاء عقله الذي عرف بالتحديد مكامن الخلل وأوجه القصور ، فتمرد على الحياة ومن ثم تمرد على نفسه وغرق في الجنون .

وهكذا تكسرت أجنحة ذلك العقل الجبار الذي سرقت منه النسور سرعتها وأنفتها وتحليقها وجرأتها وجبروتها .

***

زوربا هو الآخر يحمل القدر نفسه من عدم الرضا الذي يفضي إلى التمرد . لكن زوربا اعتمد مشروعاً آخر بعيداً عن مثالية نيتشه ، حيث سعى الأخير إلى تحقيق الكمال على الأرض عبر مشروعه العقلي ، بينما اندفع الأول في حب الحياة كما هي من دون أن يطمح في تغييرها . وهذه هي المصالحة التي يمكن أن تمدّ المرء بالطاقة على الاستمرار .

زوربا كان يدرك أن الحياة مليئة بأوجه القصور ، والأهم أنه كان يدرك أين تكمن مظاهر القصور وقد كان يثور في وجهها أحياناً ، لكنه لم يعتقد أبداً أن الحل المثالي هو هدم المعبد على من فيه تمهيداً لإعادة البناء على وجه أكمل من دون وجود أي ضمانة تكفل تحقيق الغاية الأخيرة ، وأقصد بها : إعادة البناء بعد تحويل البناء القديم إلى أنقاض . يقول نيتشه في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) في عبارة تحمل أكبر قدر ممكن من التمرد والرغبة في الهدم :

«من أراد أن يكون مبدعاً سواءً أكان في الخير أم في الشر فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيماً . وهكذا فإن أعظم الشر يبدو جزءاً من أعظم الخير ، ولكن هذا الخير لم يعط إدراكه إلا للمبدعين» .

لقد كان زوربا يتبع فطرته الإنسانية النقية التي لم تفسدها نظريات الفلاسفة وأوهام الأيديولوجيا ، ولذلك ظلت تلك الفطرة نقية إلى حد الشفافية ومنفلتة إلى حد الحراشة .

لقد كان زوربا يلبي نداء الحياة الذي يزمجر بداخله ، وقد كان هذا كافياً ليتعايش الرجل مع كل مظاهر النقص التي تكتنف الحياة .

وعلى العكس من ذلك كان نيتشه يكبح نداء الحياة بداخله تمهيداً لتحقيق غواية الكمال . . وهو ما لم يستطع نيتشه أن يحققه إلا على الورق .

* * *

لقد عشقت زوربا لأنني كنت في يوم من الأيام ، مثل كاتب الرواية كازينتزاكس ، مغرماً بنيتشه . وككازينتزاكس تماماً ، اكتشفت أنني كنت مغرماً بالحلم ومنساقاً وراء غواية تحقيق الكمال التي كانت تصرخ من أعماقي منادية : الخلاص . . الخلاص .

لقد أقلعت عن غرامي بنيتشه وأصبحت أحد عشاق زوربا لأنني كنت على يقين بأن الرجل كان شخصاً من لحم ودم

ولم يكن مجرد شخصية روائية ولدت من رحم خيال المؤلف كازينتزاكس الذي يحتلّ في نفسي وعقلي ووجداني وضميري ، مكانة متفردة .

وعندما قرأت سيرة كازينتزاكس الذاتية «تقرير إلى ألجريكو» تبين لي فعلاً أن زوربا كان شخصاً حقيقياً وأن ما ورد في الرواية عن شخص زوربا وعن علاقته بالمؤلف ، لم يكن من نسيج الخيال أبداً .

وأكثر من ذلك فقد صرّح كازينتزاكس في كتابه «تقرير إلى الجريكو» وبالتحديد في الفصل الذي عنوَنه «زوربا» ، أنه حاول من خلال الرواية أن يكون أميناً إلى أقصى حدود الأمانة في وصف زوربا وفي نقل آرائه ومواقفه التي عاشها وعاشها معه المؤلف . ولقد كان ذلك واضحاً بجلاء من خلال الأسلوب الذي كان كازينتزاكس يكتب بواسطته حوارات زوربا . لقد كان أسلوب حوارات زوربا المفعم بالحيوية والواقعي إلى حد الفجاجة والقاسي إلى حد الفجيعة والمنفلت إلى حد التخلي عن الحشمة ، يوضّح مدى التزام المؤلف بنقل صورة حية وغير خاضعة للتحسين أو التصرف ، عن هذا الكائن الإنساني العجيب المسمى : زوربا .

أما فيما يخص بنية الرواية ، فإن الأحداث لم تكن ذات أهمية تذكر ، بل إنه يمكن تلخيصها في اللقاء الذي جمع بين زوربا والكاتب الشاب العائد إلى مسقط رأسه (كريت) لاستثمار ما

يملك من نقود عبر مشروع للتنجيم عن الفحم . تنعقد أواصر صداقة حميمة منذ اللقاء الأول بين كل من البطلين اللذين التقيا وهما يهمّان باستقلال المركب المسافر إلى جزيرة كريت ، وهناك تتوطد هذه الصداقة ويكتشف الكاتب كم هو عبثي وغبي ومحدود ووهمي ، عالم الأوراق الذي حصر الكاتب نفسه فيه مقابل عالم زوربا المشرق بالرقص والموسيقى والنساء والحب والخبرة الإنسانية الحرة والمجردة من أي أحكام أو اعتقادات مسبقة .

الكتاب محاولة للتأمل في الحوارات التي كانت تجري بين الرجلين - زوربا والمؤلف - وهو محاولة للغوص في فلسفة زوربا التي كانت تنساب على لسانه أثناء هذه الحوارات .

إنها محاولة لتقصي الحكمة الزوربية المندفعة كمياه شلال هادر مقابل ما جادت به قريحة الفيلسوف الألماني المثالي المسكون بحلم تحقيق الكمال على الأرض ، فردريك نيتشه .

إنها محاولة لقراءة فكر زوربا من خلال نيتشه وفكر نيتشه من خلال زوربا . .

أتمنى أن تكون محاولة تستحق القراءة .

١٤/٣/٢٠٠٦

الفصل الأول
بين تمرد نيتشه وتمرد زوربا

إذا كان الفيلسوف الألماني نيتشه قد استطاع أن يحتفظ لنفسه بموقع متميز في تاريخ الفكر الإنساني ، فإن ذلك يعود إلى قدرته التي لا تُبارى على الهدم . كل العلامات المضيئة في تاريخ الفكر البشري كانوا هدّامين بالفطرة ، الثقافة نفسها فعل هدم قبل أن تكون فعل بناء ، والمفكر أو المصلح أو المبدع الذي لا يمتلك معول هدم لا يمكنه أن يدخل التاريخ .

من بين كل الهدامين أرى أن اليوناني نيكوس كازنتزاكس وبطله زوربا هما الأكثر عمقاً والأكثر إنسانية بين جميع المتمردين في التاريخ . هذان الرجلان اللذان اختارا أن يرشقا البناء الشامخ بالحجارة ، لا أن يقوّضا المعبد على من فيه على طريقة شمشون .

نيتشه هو شمشون الفكر والأدب الأول بلا منازع ، هدم كل شيء ، قوّض البناء على رؤوس من فيه ، ولم يسلم رأسه هو من الحجارة التي انهالت عليه من كل الاتجاهات فكان نصيبه الجنون الذي صاحبه حتى الموت .

يقول نيتشه من خلال كتابه (هكذا تكلم زرادشت) وعبر الباب الذي دعاه (العلماء) :

«أحب أن أستلقي على الأرض حيث يلعب الأطفال تحت الجدار المتهدم وقد نبت في شقوقه العوسج والشقائق الحمراء . فإنني لم أزل عالماً في عيون الصغار وفي عيون العوسج والشقائق الحمراء لأنها طاهرة حتى أذنيها» .

زوربا كان هداماً هو الآخر ، ولكن من نوع مختلف . لم يكن يطمح في أن يستلقي تحت الجدار المتهدم على طريقة نيتشه ، ولم يكن ليفعل ما فعله الأخير عندما ألغى المجتمع بالكامل وحصر علاقاته مع الأحياء على الأطفال والعوسج والشقوق الحمراء . لقد كان زوربا مشاغباً ، والشغب أخطر بكثير من الحروب الصريحة .

انظر إليه هنا وهو يبسط مفهوم الله ويؤنسنه من خلال المقطع التالي من الرواية الذي يحاول فيه زوربا إقناع صديقه الكاتب بالذهاب إلى الأرملة الفاتنة ، فيرفض الكاتب هذا الاقتراح فيرد زوربا عليه :

«أريد أن تعلم بأن الله سوف يكون مسروراً لو تذهب إلى الأرملة هذه الليلة . كالملاك جبريل . لو أن الله اتّبع الطريقة نفسها مثلك ، لما توجّه نحو مريم ولما ولد المسيح . وإذا سألتني أي طريق يسلكه الله سوف أقول : الطريق الذي يؤدي إلى مريم . ومريم هي الأرملة» .

زوربا لم يكن عدائياً مثل نيتشه ، لقد كان الرجل ساخراً وعابثاً . لقد اختار أن يشهر الضحكة بدلاً من السيف ، رمى البنيان الشامخ كالطود بالحجارة لا ليهدمه ، ولكن ليثير من الأسئلة ما لا يملك الكثيرون الجرأة اللازمة لإثارتها .

الشغب أكثر ذكاءً من الهدم ، والأهم أنه أكثر إنسانية منه . انظر هنا إلى زوربا وهو يؤنسن مرة أخرى مفهوم الله بدلاً من إلحاقه بمفهوم السلطة أو مؤسسة الحكم كما يفعل كثير من المتدينين ، وبدلاً من مهاجمته ومحاولة الاعتداء عليه على طريقة نيتشه وباقي الهدامين الذين على شاكلته :

«أنا أتصور الرب يشبهني ، إنما ، أكبر وأقوى وأشجع ، وهمومه أكثر من همومي . وهو من دون شك خالد إلى الأبد . يجلس بهدوء وراحة على جلود خراف لينة . أما كوخه فالسماء كلها . ليس مصنوعاً من بقايا الخشب والصفائح المتهرئة . وهو لا يحمل بيده اليمنى لا سيفاً ولا ميزاناً ، فهذه أشياء يحتاجها اللحامون والعطارون . بل يحمل قطعة كبيرة من الإسفنج مليئة بالماء ، وكأنها غيمة من المطر . وعلى يمينه يقع ملكوته ، الفردوس والنعيم ، وعلى يساره جهنم المحرقة . وعندما تحضر لعنده روح من الأرواح عارية تماماً ، تعيسة ، بعد أن تاهت عن جسدها ، يحدجه الرب بنظرة ، وهو يكتم ضحكته ، متظاهراً بالغضب ويرفع صوته الجهوري «اقتربي مني أيتها الملعونة» ، ويبدأ السؤال ويأتي الجواب وترتمي الروح عند أقدام الرب

مسترحمة ، ضارعة ، متوسلة . وتبدأ بتعداد خطاياها وضحاياها . تبدأ من دون أن تنتهي ، ويتململ الرب ضجراً ، ويتثاءب ويصرخ بها «اسكتي فقد أصاب رأسي صداعاً من كثرة كلامك» . ومن ثم يمسح بإسفنجة كل ذنوبها ويقول لها آمراً «هيا اغربي عن وجهي وادخلي الجنة . . يا بطرس . . دع هذه الفتاة البائسة تدخل» . إن الله كما يجب أن تعلم سيداً عظيماً ، والأخلاق العالية في أن تغفر وتسامح عندما تستطيع ذلك» .

مقابل هذه الأنسنة التي لا تخلو من عبث ، كان نيتشه مؤمناً بالله حتى في أشد لحظات إلحاده المعلن .

نيتشه لم يتخلص من فكرة الله كما ادعى . . لم يستطع أن يئد الله داخله . . ولذلك فقد أوقف فكره على اختراع إله بديل هو (السوبرمان) أو (الإنسان الأعلى) أو (الإنسان الإله) .

لم يكن نيتشه صادقاً مع نفسه بما فيه الكفاية عندما أعلن موت الإله .

يقول نيتشه من خلال الباب الذي أطلق عليه (المسحورون بالعالم الثاني) :

«ما كان هذا الإله إلا إنساناً ، بل جزءاً من شخصية إنسان ، لأنه نشأ من ترابي ومن لهبي . إنه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم» .

ولو كان نيتشه يدرك حقيقة دوافعه ، كنه احتياجاته إلى وجود إله يؤمن به ، لما اخترع فكرته المثالية عن السوبرمان أو الإنسان

المتفوق ، لأن هذه الفكرة لم يكن لها من غاية حقيقية سوى إيجاد إله بديل .

ألا ينطبق الكلام الذي كتبه نيتشه من خلال عبارته السابقة عن الإله الذي ادعى أنه نشأ من ترابه ولهبه وأنه شبح من هذا العالم لا من ورائه ، على السوبرمان أو المخلص الجديد؟ !

«ما أنا إلا منبئ بالصاعقة ، أنا القطرة الساقطة من الفضاء ، وما الصاعقة التي أبشر بها سوى الإنسان المتفوق» .

نيتشه لم يستطع أن يخرج من عباءة الدين ، فقدم مشروعاً بديلاً يدعي الكمال المطلق ويجيب على كل الأسئلة الملحة المحيرة ويقدم حلولاً نهائية ومثالية لكل مشاكل البشر .

لقد اخترع نيتشه ، مثله مثل ماركس ، ديناً أرضياً في غمرة اعتقاده بأنه نجح في اغتيال الدين إلى الأبد .

***

زوربا كان أكثر تواضعاً من نيتشه ، وأعمق تمرداً منه .

زوربا لم يتوقف عن طرح الأسئلة ولم يدّع على الإطلاق أنه يمتلك إجابات نهائية ، ولم يصدّر كلامه على طريقة نيتشه الذي كان يبشر عبر كتابه «هكذا تكلم زرادشت» بالإلحاد بعد أن يستهل جمله بالعبارة الشهيرة المقتبسة من الإنجيل : «الحق أقول لكم» !

زوربا لم يدّع معرفة الحقيقة ولم يتوقف عن إطلاق علامات الاستفهام وكأنها سرب من العصافير وقد فتحت أبواب القفص

الحديدي أمامها فجأة ، فراحت تطير بجنون من استعاد قدرته على ممارسة لذة ميئوس من استعادتها .

زوربا يتمتع بروح متمرد أصيل لا روح مؤمن تتنكّر في صورة متمرد . انظر إليه هنا وهو يعلن عجزه عن التكيف مع قانون الموت بعد مقتل الأرملة الشابة :

«كل ما يجري على الأرض غير عادل . . غير عادل . . أنا دودة الأرض زوربا . . . الحلزون . . لا أقرّ بهذا . لماذا يجب أن يقتل الشبان؟ لماذا يموت الصغار؟ كان لدي ولد صغير ، ولدي ديمتري ، ومات وهو لا يزال في الثالثة من عمره ، لن أغفر هذا للرب أبداً . . هل تسمعني؟ أبداً . . أبداً . . !» .

هذه هي إحدى تجليات أزمة زوربا الوجودية ، إنها أزمة عميقة ناتجة عن معاناة بشرية حقيقية ، بينما تتجسد أزمة نيتشه الوجودية في عجزه وعجز الإنسان عموماً عن الالتحاق بركب الآلهة .

يقول نيتشه عبر الباب الذي أطلق عليه (اللذة والشهوة) :

«ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه» .

زوربا مختلف عن ذلك ، فإنسانية زوربا لم تكن أبداً مصدر أزمة بالنسبة إليه ، ما يدفع زوربا للتمرد شيء آخر تماماً . . إنه متصالح مع بشريته تماماً ، لكنه لا يتقبل قانون الموت الذي يحكم على جميع الموجودات بالفناء بمنتهى القسوة . . إنها أزمة الكائن البشري مذ وجد على الأرض ، فقد تحايل البشر

على حقيقة رفضهم وعدم استيعابهم لقانون الموت بشتى الحيل فأبدعوا الفنون والآداب وبرعوا في العلوم وسعوا إلى المجد والسلطة والشهرة وتسابقوا على إنجاب البنين والبنات وغرقوا في الحب والملذات ليحتالوا على خوفهم الأزلي من الفناء . لكنهم لم يواجهوا المسألة بشكل مباشر وعفوي وصادق كما فعل زوربا . زوربا الذي كان يصرخ معترضاً في وجه الموت كلما صادفه ، وهو يعرف تماماً أن هذا الصراخ لن يجدي شيئاً سوى التنفيس عن مشاعر الغضب والعجز وعدم التقبل .

انظر الآن إلى زوربا وهو يعلن عبر الحوار التالي مع صديقه الكاتب ،عن رفضه قانون الموت حتى عندما يأتي هذه المرة على ضحية مسنة ومؤهلة لكي يقطفها الموت بشكل تلقائي كصديقته الفرنسية مدام هورتنس :

«هل تستطيع أن تقول لي أيها الرئيس من قام بعمل كل هذا؟ ولماذا؟ وخصوصاً لماذا نموت؟

- كلا لست أدري .

- لا تدري؟ ! إذن فجميع هذه الكتب التي تتصفحها وتقرأها لا تنفع ! ما نفعها؟ قل لي لماذا تقرأها؟» .

هكذا يعلن زوربا ، بكل تواضع ومن دون أدنى إحساس بالخجل ، عجزه . . وها هو يجاهر بجهله ويواصل إلقاء الأسئلة ويرمي بآلاف علامات الاستفهام الحائرة في وجه من يحب .

علامات الاستفهام التي لا تطمح في الحصول على إجابات . . علامات الاستفهام المتواضعة التي تنصّب الجهل ملكاً وتتوجه على قمة جهود العقل البشري .

زوربا متمرد أصيل ، والتمرد الحقيقي والأصيل لا يدعي الكمال أبداً . هكذا هو تمرد زوربا ، طازج دائماً ، بسيط أبداً ، ومؤمن بأنه غير كامل ، تماماً مثل الإيمان .

إنه نقيض الإيمان وقرينه ومرادفه في الوقت نفسه .

التمرد الزوربي هو موجة من الاستنكار والغضب المغلف بحب لا ينتهي للجنس البشري الغارق في بؤسه . . حتى عندما يغرق في طغيانه .

التمرد ليس إنكاراً ، وإنما استنكار . . كيف يمكن أن تنكر ما لا تمتلك وسيلة لإثباته أو إنكاره؟ زوربا لا ينكر ، بل يستنكر ، لا يحاول نسف الفكرة من أساسها ، لكنه لا يتقبلها على علاتها . لا يحاول أن يخترع مشروعاً بديلاً أو فكرة جديدة تحل محل تلك القديمة .

إنه لم يعلن وفاة الله على طريقة نيتشه ، ولم يعلن وجوده على طريقة رجال الدين ، وهذا ما جعله أكثر حرية وأعمق تمرداً من نيتشه نفسه .

تأمل زوربا في هذا المقطع الحواري مع صديقه الكاتب ليلة عيد الميلاد ، وهو يتقبل وجود الله لا لشيء إلا لأنه يدخل على حياته بعض العزاء ويمنح نفسه القلقة بعض السلوى :

«كل واشرب يا صديقي . غَنِّ أنت أيضاً أيها الرفيق . غَنِّ كالرعاة (المجد لله في العلى . . لقد ولد المسيح) . لقد ولد المسيح . . يا سليمان الحكيم . يا أيها الكاتب الرديء . لا تذهب وتحاول أن تأخذ الأشياء بإبرة . أولد أم لم يولد . بالتأكيد لقد ولد . ولا تبدو أحمق . لو أخذت عدسة مكبرة ونظرت إلى الماء الذي تشربه ، إن مهندساً قال لي هذا ، سوف ترى بأن المياه ملأى بالديدان الصغيرة جداً . ولن تعود لشربه ثانية وستقضي من الظمأ . فتحطم كأسك أيها الرئيس . لتختفي الديدان الصغيرة ، ولتتمكن من أن تشرب وتنتعش» .

هذا هو التمرد الزوربي الأصيل : تمرد يمزج الإيمان بالإنكار في وحدة لا تفصل بين القطبين المتنافرين . توليفة من التسليم والإذعان المشبع بروح الغضب والتمرد . تمرد مؤمن ، وإيمان متمرد ، وحقيقة واحدة نسجت خيوطها مما يعتقد المرء أنه غير قابل للتلاقي فضلاً عن التوحد . ليس هناك إيمان كامل وليس هناك إلحاد كامل ، هناك حالة وسطى بين الطرفين . . في الوسط تكمن الحقيقة . . وعلى الأطراف لا شيء البتة . . لا شيء سوى أوهام تعتقد بأنها قادرة على حل اللغز واكتشاف كلمة السر .

التمرد النيتشوي ليس كذلك . إنه تمرد ضيق . . تمرد يلغي الاحتمالات المفتوحة على مختلف الاتجاهات . . الأفق كله احتله الإنسان الأعلى واحتكره وخط عليه اسمه بمداد من نار .

مشكلة نيتشه لا تكمن في الإيمان أو الإنكار ، أزمة نيتشه الحقيقية تكمن في تفوقه وفي إدراكه حجم وطبيعة هذا التفوق الذي كان رغم كل شيء أسير قوانين الوجود الصارمة . وهذا ما جعل نيتشه غير قادر على التعلق بالحياة أو الغوص فيها . . لقد كان نيتشه يفكر بوحي من قناعته التي تقول بأن الحياة في شكلها الحالي أضيق من أن تستوعب من كان مثله . . لماذا . .؟ . . لأنها تساوي قسراً بينه وبين الآخرين الخاملين . . قانون الموت بحد ذاته لم يكن يسبب مشكلة حقيقية لنيتشه كما هي الحال مع زوربا ، إلا من حيث إن هذا القانون الصارم كان يكرس المساواة غير العادلة بين المتفوق والخامل ، بين الشجاع والجبان ، بين المكافح والبليد . . وبين العبقري والغبي .

يقول نيتشه من خلال الباب الذي أطلق عليه (العناكب) :

«لقد علمتني العدالة أن لا مساواة بين الناس وأنه من الواجب ألا يتساووا ، وليس لي أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فإن محبتي للإنسان تصبح ادعاءً مبيناً» .

لقد كانت بشرية نيتشه هي أزمته العميقة ، وهو ما عبّر عنه من خلال هذه الفقرة من كتاب هكذا تكلم زرادشت :

«لسوف أفتح لكم قلبي فلا تخفى عنكم خافية ، فأقول لكم : لو كان هناك أرباب أكنت أتحمل ألا أكون رباً؟ إذن ليس في الكون أرباب» .

لا تنحصر أزمة نيتشه في وجود أو عدم وجود الأرباب ، فهناك أزمة أخرى لا تقل من حيث التأثير الذي تركته عليه وبالتالي على إنتاجه الفكري .

ربما كان الموت هو أزمة نيتشه الحقيقية ، ولأنه لم يواجه نفسه بهذه الحقيقة فقد اعتقد أن الموت فضيلة إذا ما تحكم الإنسان في توقيته بدلاً من الارتهان إلى الوقت الذي يفرض فيه الموت نفسه على الإنسان . . وهذه بحد ذاتها فكرة عجيبة تجسد معاناة نيتشه الحقيقية إزاء الموت . . فإذا نجح الإنسان في التحكم بتوقيت موته ، فماذا سيبقى من فكرة الموت نفسها . .؟ !

لقد كان الموت يمثل لنيتشه منتهى الخضوع ولم يكن من حلٍّ بالنسبة إلى هذه الأزمة لديه سوى أن يقوم الإنسان باختيار توقيت موته بدلاً من الارتهان إلى إرادة الموت وبدلاً من الخضوع المذل لما تقتضيه هذه الإرادة الصارمة .

انظر إليه هنا وهو يتحدث لقرّائه وأتباعه عن الميتة المثالية :

«لسوف أنبئكم بالموت الذي يُقدس ، الموت الذي يدفع الأحياء ويجتذبهم بحوافزه وآماله . إن من أكمل عمله يموت ظافراً وحوله من يحفزهم الأمل وتنطوي فيهم الأماني . تعلموا أن تموتوا هكذا ، ولكن اعلموا أن لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء بإتمامه» .

ثم يتابع «تلك هي الميتة الفضلى ، تليها في المراتب ميتة من يسقط في المعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه . غير أن ما يحتقره

المجاهدون والظافرون على السواء إنما هو ميتتكم الشوهاء التي تزحف لصاً وتتقدم آمراً مطاعاً .

ما أجمل ميتتي إذا أنا تخيّرتها فجاءتني لأنني أطلبها» .

نعم . . صدق نيتشه . . فالموت يزحف لصاً لكنه يتقدم آمراً مطاعاً . لكن هل هناك حل لهذه المسألة . .؟ وهل الموت إلا ذلك اللص الجبان الذي يزحف متخفياً ويمشي على رؤوس أصابعه حتى يصبح آمراً مطاعاً . .؟ وهل هناك موت طبيعي يخرج عن هذه الصيغة الكريهة إلا إذا استثنيا الموت الذي ينتج عن الحوادث بما فيها الموت في ساحات الحروب . .؟ وهل يمكننا أن ننظر إلى هذا النوع من الميتات إلا بوصفه نوعاً استثنائياً خارجاً عن طبيعة الأمور؟

هذه هي الأزمة إذن . . ليست الأزمة في الموت بقدر ما هي في الخضوع لإرادة الموت . وليست الأزمة في الخضوع لإرادة الموت فقط ، ولكن لأن هذا الخضوع هو الذي يكرس فكرة المساواة بين الجميع وهو ما يصطدم بقانون إرادة القوة الذي ابتدعه نيتشه . إن هذا بالتحديد هو ما دفع بنيتشه إلى التعاطي مع مسألة الموت وفق آلية التصنيف التي سمحت له باختراع أنواع من الميتات الفاضلة كما جاء على لسانه في السطور السابقة .

***

مأساة نيتشه أنه لم يؤمن بالحياة كما أعلن مراراً ، أنه لم يخض غمارها ، ما حدا به إلى التعامل معها وفق ذهنية المحارب الذي

يود الاستيلاء عليها لا التصالح معها ، والذي يود أن يبدلها إلى ما يشاء لا أن يتعاطى معها كما هي .

مشكلة نيتشه أن عينيه لم تريا في الآفاق الممتدة إلى ما لا نهاية إلا ما يحفز إرادته على الاستيلاء ، لأنه في الأساس لم يخض غمار الحياة إلا بفكره وانفعالاته الناتجة عن التأمل لا عن التجربة المباشرة .

يقول نيتشه عن ذلك من خلال الباب الذي أطلق عليه (زرادشت المهاجر) :

«إنني أشاطرك الأسى أيها المدى المظلم الوسيع ، وأنا بسببك ناقم على نفسي أتمنى لو طالت يداي فأنقذك من أصفاد أحلامك» .

* * *

زوربا على العكس من ذلك ، ارتهن إلى الأفق بدلاً من محاولة الاستيلاء عليه ، لا لشيء إلا لأن زوربا يعرف تماماً سّر قوته ومواطن ضعفه . زوربا هو خادم الآفاق المفتوحة التي لا تنتهي إلى نقطة معلومة أو محددة أو مرئية . . زوربا هو خادم هذه الآفاق لا سيدها ، وهذا ما حدا به في الفصل ما قبل الأخير من الرواية إلى مقاطعة صديقه الكاتب الذي رفض أن يأتي إليه في صربيا حيث استقر في النهاية ، ليشاركه متعة مشاهدة الأحجار الخضراء الجميلة التي عثر عليها مؤخراً .

تأمل الكاتب وهو يقص هذه الواقعة وصدى الدعوة التي وجهها إليه زوربا في ظروف جد عصيبة وأليمة :

«في أحد الأيام استلمت برقية من زوربا ، وكنت وقتها في ألمانيا «اكتشفت أحجاراً خضراء عظيمة ، احضر فوراً ، زوربا» . كان ذلك في أيام المجاعة المشهورة في ألمانيا . وكان المارك قد سقطت أسعاره ، حتى أنك إذا أردت أن تشتري شيئاً بسيطاً ، كان عليك أن تملأ حقيبة بالنقود ، مجاعة ، برد ، ملابس بالية وأحذية ممزقة . وبهتت الوجنات الألمانية . كان الناس يموتون جوعاً في الشوارع . والأطفال الرضع كانوا يمضغون قطعاً من الكاوتشوك بدل رضع الحليب . وخلال الليل كان رجال الشرطة يحرسون الجسور ، حتى لا تأتي الأمهات ويرمين بأطفالهن وينتحرن . في هذه الأيام العصيبة استلمت البرقية . أولاً شعرت بالغضب ، فبينما كان كثير من الرجال يموتون جوعاً ، استلمت برقية تدعوني لأن أعبر آلاف الأميال لأشاهد حجراً أخضر جميلاً ! فليذهب الجمال إلى الجحيم . فالجمال بلا قلب فهو لا يشعر بألم البشر . إلا أنني شعرت فجأة بالخوف : فقد هدأت نفسي وشعرت باحتقار ، فعلى نداء زوربا اللاإنساني ، كان يرد نداء لا إنساني آخر من داخلي . كما لو كنت مسكوناً بطائر كاسر . ومع هذا لم أحقق طلبه ، لم أطع تلك الصرخة التي تجاوبت مع زوربا . لقد أطعت صوت العقل . وكتبت لزوربا وشرحت له الأمر . واستلمت منه ما يلي : «أنت مع كل احترامي لك كاتب رديء ، فقد أتيحت لك الفرصة لترى حجارة جميلة خضراء ولكنك لم تقبل . بعض الأحيان أتساءل «هل هناك جهنم أم لا؟» ولكن بعد أن استلمت رسالتك ، تأكدت بأن جهنم موجودة للكتّاب الأغبياء مثلك» .

هذا هو زوربا . . ضعيف أمام رغباته التي تحوم دائماً حول الجمال .

هذا هو زوربا . . إنه ليس كاملاً إلا في ضعفه . . والضعف تاج الإنسانية ومصدر قوتها وسبب وجودها ووقود حياتها . جرّد الإنسان من ضعفه وسترى العجب العجاب . . سترى أن الشخص يفقد من رصيده كإنسان بقدر ما يفقد من ضعف . إرادة الضعف هي التي بشّر بها زوربا على عكس إرادة القوة التي بشر بها نيتشه .

زوربا غاضب على الإنسان بقدر محبته له وإشفاقه عليه ، لكنه في النهاية متصالح معه ومنسجم مع ضعفه ، بعكس نيتشه الذي رفض الإنسان وحاول أن يجرده من بشريته ليلحقه بركب الآلهة !

يقول نيتشه من خلال الباب الذي استهل به الكتاب وأطلق عليه (بدايته) :

«ما الإنسان إلا حبل منصوب بين الحيوان والإنسان المتفوق ، فهو الحبل المشدود فوق الهاوية» .

قد يكون حديث نيتشه عن الإنسان واحتقاره له مبرراً من أكثر من ناحية ، لكن نيتشه لم يبد إلى جانب هذا الاحتقار أي تعاطف مع الإنسان أو أي تفهم له . . وبالتالي فإنه لم يحبه . والحب هو أن تتقبل المحبوب من دون أن تتطلع إلى تغييره . . من دون أن تتطلع إلى خلق من يشبهك داخله .

أما الحديث عن الإنسان المتفوق في العبارة السابقة ، فما هو سوى استجابة لوهم الإله البديل .

***

زوربا متصالح مع شهواته لأنه ببساطة لا يخفي قديساً تحت ثيابه كما هي الحال مع نيتشه . نيتشه هو قديس ملحد ، فإلحاد نيتشه كان يدعي صفة القداسة . . إنه إلحاد مدع لأنه أعلن امتلاكه الحقيقة المطلقة .

زوربا لا يحب كل من يدعي امتلاك الحقيقة ، إنه يدعو بدلاً من ذلك إلى الإيمان بالغريزة والإخلاص لها . وها هو زوربا يعترف بل يفاخر من خلال هذا الحوار مع صديقه ، بإغراقه في الملذات الحسية ليروي كل أشكال نهمه إلى الحياة :

«أنا عندما أشتهي شيئاً ، هل تعلم ماذا أفعل؟ آكل منه حتى أشبع تماماً ، وأشعر باحتقار شديد نحوه ، ولا أعد أفكر به أبداً ، أو يخطر على فكري ولكن لا أعد أشتهيه . ذات مرة ، كنت طفلاً صغيراً ، وكنت مغرماً بالكرز . ولم أكن أملك النقود الكافية لهذا فكنت لا أشتري منه إلا النزر اليسير ، ورغم أني ألتهم كل ما أشتريه تبقى الشهوة إليه تستعر داخلي . كنت أفكر به ليلاً نهاراً ، ويسيل لعابي من أجله وأشعر بأوجاع الشهوة . إلا أني في أحد الأيام تضايقت ، أو قل شعرت بالحياء . لا أدري لماذا تماماً . لقد شعرت بأن الكرز سيطر علي ، وهذا ما يجعلني سخيفاً . إذن يجب علي أن أفعل شيئاً ما . نهضت ليلاً ، وبحثت في جيوب والـدي ، فوجدت قطعة نقد فضية فأخذتها . وفي صباح اليوم التالي ، توجهت إلى البقال واشتريت كمية من الكرز واختبأت في حفرة ، وأخذت ألتهم الكرز . . حتى شعرت بألم في معدتي ، فبدأت أتقيأ . ومن

ذلك الوقت لم أعد أفكر بالكرز ، لم أعد أستطيع أن أتخيله . وحررت نفسي من عبوديته وبعد ذلك فعلت الشيء نفسه مع النبيذ والسجائر . أنا حتى الآن أدخن وأشرب . ولكن عندما أريد أن أتوقف ، أتوقف من دون أي تعب فرغبتي بهما لم تعد مسيطرة علي . وهذا الشيء تماماً بالنسبة إلى الوطن . لقد أغرمت به حتى الثمالة فتقيأته وتخلصت من عبوديته .

– والنساء؟

– إن دورهن لا بد آت ، السافلات . ولكن عندما أصبح في السبعين . لا . . بل في الثمانين» .

***

هذا هو الفارق بين تمرد نيتشه وتمرد زوربا . . الأول كان محارباً يتنكر في زي متمرد . . والآخر كان ينظر إلى الحياة باعتبارها ميداناً للهو والمتعة وليس باعتبارها جبهة قتال .

هكذا خرج زوربا من دائرة الخضوع لأي سلطة حتى ولو كانت تتمثل في سلطة الرغبة في تعديل الحياة وتحويلها إلى الأفضل .

إنه تمرد مجد بقدر ما هو عابث . .

والأهم أنه تمرد يجسد توق الإنسان إلى التحرر من أي سلطة .

الفصل الثاني
ناسك اللذة

الشهوات يجب أن تُشبع ، والغريزة يجب استرضاؤها حتى يظل العقل متوهجاً وحتى لا ينتهي به الحال إلى أن ينتحر فداء للغريزة وتكفيراً عن الخطايا التي لم ترتكبها .

أي حرب على الغريزة مكتوب لها الفشل مسبقاً . . الترويض ممكن . . والترويض لا يكون إلا بالاستغراق في اللذة وامتصاصها حتى نُتخم بها فنتقيؤها غير آسفين ، ونتحرر منها لنصبح أكثر قوة .

كلما منحنا الغريزة الفرصة للانطلاق والتغريد كلما أصبحنا بشراً حقيقيين ، غير ملوثين ، غير حانقين . . وغير راغبين في القتل والإبادة لمداراة عجزنا عن الانضمام إلى ركب الحياة .

الغريزة تعيدنا أنقياء كالأطفال ، تحررنا من همومنا وتوقظنا من أوهامنا ، وتمنحنا القدرة على مواجهة متاعبنا بعيون مفتوحة وغير قابلة للوقوع في حبائل السحر . . حيث ينخدع البصر فيرى ما يريد فقط أن يراه . . يراه حتى ولو لم يكن موجوداً .

متصالح زوربا مع الحياة لأنه متصالح مع غريزته . . والغريزة هي الفطرة . . هي نداء الحياة الذي نهرع لتلبيته من دون أن نكون

مضطرين إلى تبريره . الغريزة تبرر نفسها ، مثلها مثل الحياة . . وكل ما يتعالى على التبرير حقيقي ، وكل ما يحتاج إلى مبرّر ، هو بشكل من الأشكال ، غير حقيقي .

الغريزة تبرر نفسها وكذلك الحياة . تأمل ما يقوله زوربا عن المتعة عبر الأسطر التالية ومن خلال ذلك الحوار الذي يستهله صديقه الكاتب بهذا السؤال بعد أن شبّه زوربا عشيقته الفرنسية وباقي متع الحياة ، بالعظام :

«- ألا تود أن تسأل الآن من الذي يرمي لك بالعظمة؟

- وما الذي يهمني ، إنها ليست إلا نملة كبيرة بين كومة من القش . تناول العظمة ولا تهتم لليد التي ترمي بها ، هل هي ذات مذاق جيد؟ هل عليها بقايا من اللحم؟ هذه هي المشكلة ليس إلا» .

هذا هو زوربا ، إنه لا يهتم كما يفعل باقي المفكرين الذين نسوا الحياة وأنها حقيقة لا تحتاج إلى تبرير لأنهم استغرقوا في تأملها ومحاولة تفسيرها .

الغريزة حقيقة ، والحذر كل الحذر من تجاهل الغريزة ومن محاولة كبتها . إذا حدث ذلك فإن الإنسان سيكون مرشحاً لأن يقع فريسة للجنون ، أو أن يحترف القتل . . ونيتشه المسكين لم يجن من فراغ .

انظر هنا إلى ما يقوله نيتشه بنفسه من خلال كتابه هكذا تكلم زرادشت :

«ما أنا بالمشير عليك بالنزاهة ، لأنها إذا كانت فضيلة في البعض فإنها لتكاد أن تكون رذيلة في الآخرين . ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتع ، غير أن شبقهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم» .

ثم يضيف :

«إن كلاب الشهوة تتبع هؤلاء الممسكين حتى إلى ذرى فضيلتهم فتنفذ إلى أعماق تفكيرهم الصارم لتشوش عليه سكينته ، ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما تتوسل به إلى نيل قطعة من الدماغ المفكر إذا منعت قطعة اللحم عنها» .

نعم . . إن كلاب الشهوة بإمكانها القضاء على الدماغ المفكر نفسه . . وهو ما يفعله الكبت الجنسي بالتجديد .

وإذا كان هناك نموذج يجسد ما يفعله الكبت الجنسي بصاحبه ، فهو يتجسد في كتابات نيتشه عن المرأة ومن ثم في إصابته بالجنون . العبقرية لا يهددها شيء مثل الكبت والحرمان ، إنه يحيل الطاقة الإبداعية إلى طاقة عدوانية . . صحيح أن العدوان كان وسيظل سمة من سمات الفكر الأصيل والأدب الحي ، لكن يجب أن نحافظ دوماً على دقة المعادلة حتى لا تختل ولا يختل معها فكرنا وحياتنا بالكامل .

العدوان سمة من سمات الفكر الأصيل ، لكن الويل لنا إذا تحولت الكتابة إلى أداة للتنفيس عن رغباتنا العدوانية واستجابة لما تمليه عليه كلاب شهواتنا المكبوتة . إشباع الغريزة هو الطريق إلى المعرفة والكمال . . حتى الأفكار الميتافيزيقية نفسها ولدت من رحم هذا الإشباع :

يقول زوربا لصديقه الكاتب :

«هؤلاء الآباء القديسون خبثاء جداً . يصلون إليك عن طريق معدتك ، فكيف تستطيع أن تهرب منهم؟ فهم يقولون بأنه يجب أن لا تأكل لحماً ، ولا تشرب خمراً ، لمدة أربعين يوماً . إنه الصوم ، لماذا؟ لتشتهي اللحم والخمر . . آه يا لهم من خنازير وقحة . إنهم يعرفون كل حيل هذه اللعبة» .

وفي مقطع آخر يقول :

«قل لي ماذا تفعل بالطعام الذي تتناوله ، أقل لك من أنت . البعض يحولونه إلى سمن وأوساخ ، والبعض للعمل والمرح . والآخرون ، كما قيل لي ، إلى الله . إن المعدة هي الأساس المتين ، الخبز ، الخمر واللحم هم الأسس الأولى . فمع الخبز والخمر واللحم نستطيع أن نخلق الرب» .

وفي هذا فإن نيتشه يتفق مع زوربا في الاستنتاج لكنه يختلف معه كالعادة في كونه يبحث عن غاية مثالية وراء هذه الاستنتاجات التي تعري مظاهر الضعف التي تعصف بالجنس البشري .

يقول نيتشه في كتابه هكذا تكلم زرادشت من خلال الفصل الذي سمّاه «المسحورون بالعالم الثاني» :

«صدقوني أيها الأخوة ، إن الجسد قد تملكه اليأس من الأرض فسمع صوتاً يناديه من قلب الوجود ، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز ، بل يحاول العبور منها إلى العالم الثاني ، غير أن العالم الثاني جد خفي عن الناس لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة

إنسانية ليس إلا اسماً من العدم . إن قلب الوجود لا يخاطب الناس إذا لم يكلمهم كإنسان» .

وفي الفصل نفسه يضيف نيتشه :

«وراء إحساسك وتفكيرك يا أخي يكمن سيد أعظم منهما سلطاناً ، لأنه الحكيم المجهول ، وهذا الحكيم إنما هو الذات بعينها ، المستقرة في جسدك . وهي جسدك بعينه أيضاً» .

إذن الغريزة أولاً . . وتبقى اللذة هي الهدف الأسمى .

لكن نيتشه لم يكن يؤمن حقيقة بالجسد وفضائله إلا بوصفه وسيلة للتمرد على التعاليم القديمة وللخروج عن الدين والفضائل المرتبطة به .

إنها وصفته لإيجاد الإنسان المتفوق . . الإله البديل .

***

لم يكن زوربا يبشر بالجسد كفضيلة ويعلنه بوصفه غاية لمحاربة الدين . كما أن زوربا لم يكن يسكّن قلقه الوجودي باللذة على غرار بعض الكتاب الإباحيين الذين كانوا يستخدمون غرائزهم لإسكات صوت الله داخلهم . زوربا كان يستشعر قيمة الحياة أثناء ارتشافه اللذة . . إنه لا يبحث عن معنى للحياة أو غاية لها بقدر ما يسعى إلى إلقاء زوربا داخل أتونها .

بانتفاء اللذة تفقد الحياة معناها وتتساوى مع العدم . . والعدم هو أن تُحرم من ممارسة اللذة واغترافها والغرق فيها . تأمل زوربا في هذا المقطع وهو يحكي لصديقه الكاتب هذه الواقعة :

«إنني أشبه جدي ألكسيس ، رحمه الله ، فقد كان كل مساء يجلس أمام باب منزله ، وكان قد بلغ المائة من العمر ، ليتابع بنظره الخفيف الضئيل ، الشابات المتوجهات إلى العين وما إن يراهن حتى يهتف : «تقدمي . . تقدمي ، من أنت لينيو ابنة ماسراندوني؟ إذن اقتربي . . اقتربي كي ألمسك ، لا تخشي شيئاً» . فتضغط الصبية على نفسها حتى لا تنفجر بالضحك وتقترب ، فيمد جدي يده ليلمس وجهها بهدوء ونهم . وتنهمر الدموع من عينيه . فدفعني فضولي مرة لأسأله «لماذا تبكي يا جدي»؟ فتنهد قائلاً «ألا تظن معي بأن هناك ما يدعو حتى للعويل يا ولدي ، فأنا على شفير الهاوية تاركاً ورائي كل هذا العدد من الشابات الجميلات» . آه . . يا لجدي المسكين . نعم . . فأنا أدرك الآن ما عنيته ، إنني غالباً ما أحدث نفسي قائلاً : يا للتعاسة ، لو أن كل النساء والفتيات الجميلات يهلكن في اللحظة نفسها التي أغيب فيها عن هذه الدنيا» . لكن العاهرات ، سيعشن ويتمتعن ، ويعانقوهم الرجال ، ويلثمون شفاههن ، أما زوربا فيكون قد أوري الثرى وصار يوطأ بالأحذية» .

لا حياة خارج اللذة ، والعدم كل العدم هو أن تموت تاركاً كل فرص اللذة واحتمالاتها المؤجلة وراء ظهرك .

واحتمالات اللذة المختبئة في الغيب والمحملة على جناح المستقبل ، لذة تفوق كل لذة بشرط أن يظل في المستقبل متسعاً وفي الأيام بقية وفي العمر ما يسمح بالانقياد وراء شبح حلم .

زوربا هو فيلسوف اللذة الأصيل . . ليس إباحياً بقدر ما هو حقيقي . . إنه يركن إلى الغريزة ويثق بها ويحتكم إليها . . إنها مرجعيته الوحيدة مقابل عالم الأوراق المزيف الذي خلقه مجموعة من المغرورين وغير المتكيفين وغير الحقيقيين . إنهم يرفضون نظام الوجود ، لكنهم غير قادرين على تبديله إلا عبر أوراقهم البائسة . إنهم يشيدون عالماً من ورق ويديرون ظهورهم للعالم الحقيقي ، وهذه هي خطيئتهم .

***

والآن انظر إلى نيتشه كيف يعبر عن عاطفته الملتهبة وعن شوقه الجارف تجاه المرأة عبر هذه المناجاة لسماء الليل . لم يسم نيتشه عبر هذا المقطع ، المرأة باسمها وربما وهذا هو الأرجح ، أن وعيه نفسه لم يفطن إلى أنه كان يناجي المرأة لا السماء كما كان يعتقد :

«أيتها السماء ، إنني أشخص إليك فتتملكني رعشة الأشواق الإلهية .

أنا لا أسبر أغواري إلا إذا سموت إلى عليائك ، ولا أشعر بطهارتي إلا حين يجللني صفاؤك .

أنت صامتة وبصمتك تذيعين لي حكمتك .

لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف ، جئت إلي جميلة مقنعة بجمالك تخاطبينني بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما في روحك من عفاف . أتيت إلي قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد في عزلتي» .

تأمل فقط كم مرة ورد ذكر العفاف والطهر في المقطع السابق ، وستتأكد وقتها أن نيتشه كان يخاطب المرأة المثال التي لا يسبر أغوار نفسه إلا حين «يسمو إلى عليائها ، ولا يشعر بطهارته إلا حين يجلله صفاؤها» .

في المقابل فإن زوربا لم ينجر وراء الحيل النفسية لأنه في الأساس لم ينجر وراء الأوهام ولم يختلق واقعاً بديلاً بعد أن عجز عن التصالح مع الواقع الأصل ، ولم يمارس عادة الكذب على الذات التي كان يمارسها نيتشه من دون أن يشعر خصوصاً عندما يتآمر مع وعيه لإقصاء عواطفه المكبوتة ورغباته الدفينة .

زوربا لم يكن يعاني من وجود هوّة سحيقة تفصل بين مشاعره وعقله . بالنسبة إليه لم يكن مطلوباً منه أن يبرر عواطفه ورغباته ، على عكس نيتشه الذي اقتضى طموحه في الوصول إلى مرتبة الآلهة ، تبرير ما يشعر به من عواطف إنسانية أحياناً ، ورفض هذه العواطف وإنكارها بالاحتيال عليها في أحيان أخرى .

لم يكن الإله المتوثب داخل نيتشه يتقبل وجود هذه العواطف العميقة التي كان يكنها تجاه المرأة ، لذلك راح المسكين يهاجم المرأة بعنف في الوقت نفسه الذي احتال فيه على وعيه فأوجد بدائل كالسماء في المقطع السابق ، ليسقط عليها كل تلك العواطف الملتهبة التي كان يشعر بها تجاه المرأة .

وفي موضع آخر من كتابه هكذا تكلم زرادشت ، يستخدم نيتشه صوراً جنسية لوصف ضوء الفجر وهو يعانق صفحة البحر ،

وكأنه يصف مضاجعة بين رجل وامرأة جاءت كتتويج لمشاعر الحب العارم التي تجمع بينهما . إنه الكبت الجنسي وهو يحتال على الوعي ليعبر عن نفسه بصورة غير مباشرة :

«أما ترون الفجر ينسحب على البحر وقد اهتاجه الشوق والحنين؟ إنما تشعرون بعطشه في حبه وحرّ أنفاسه ، فكأنه يريد ارتشاف اللجج ، وها هي ذي تتعالى بآلاف نهودها ، واللجة نفسها متشوقة إلى وصال كوكب النهار ليرتشفها ارتشافاً فتتحول إلى سحب ومسالك أنوار ، بل هي نفسها تفنى في النور متحولة إلى نور» .

بالتأكيد لم يكن نيتشه متصالحاً مع نفسه . . وكيف يتصالح مع نفسه من يرفض الاعتراف بمقدار حاجته للمرأة ويرفض بشريته ويطمح في الوصول إلى مرتبة الآلهة ، وهو العاشق الذي حاول الانتحار في بواكير شبابه لأن من يحبها آثرت الزواج من صديقه؟

تأمل في السطور التالية كيف يصف نيتشه معاناته من تقمّص دور الإله في عزلته عبر الباب الذي اسماه (أنشودة الليل) :

«أنا نور وليتني كنت ظلاماً لكي أرسل بركتي إليك أيتها النجوم المتأنقة كصغيرات الحباحب في السماء فأتمتع بما تذرين عليّ من شعاع . غير أنني أحيا بأنواري فأتشرب اللهب المندلع من ذاتي وقد حرمت لذة الآخرين» .

وفي الباب نفسه يعبر نيتشه عن المعاناة نفسها :

«يا لشقاء الواهبين . . . يا لظلمة شمسي ويا لشوقي إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة في شبعي» .

وانظر إليه كيف يختتم الحديث عن معاناته الناتجة من إصراره على إنكار إنسانيته والالتحاق بركب الآلهة :

«لقد فقدت السعادة في العطاء لوفرة ما أعطيت وقد ملّت فضيلتي من نفسها ومن وجودها . إن من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء . ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه» .

***

لم يكن لنيتشه أن يحتمل هذه المعاناة ، فالجانب البشري في تكوينه كان متعطشاً للحياة ، والرجل الذي يسكنه كان يعاني مجاعة عاطفية وجسدية مرعبة من جراء إخلاصه لمبادئه التي أعلنها والتي تقضي بأن يرتمي في أحضان العزلة في سبيل الارتقاء إلى مرحلة جديدة . . مرحلة ما فوق أو ما بعد الإنسانية .

كيف لم يكن نيتشه يعترف بحاجته للمرأة ومحبته لها في حين أن أول ما فعله بعد أن فقد عقله هو كتابة رسالته الشهيرة لكوزيما زوجة الموسيقي فاجنر التي كان يحبها نيتشه من دون أن يعترف لها ، ومن المرجح أنه لم يعترف لنفسه بذلك الحب فما بالك بالاعتراف لها شخصياً؟ !

وفي السطرين التاليين يتحدث نيتشه من خلال الباب الذي سمّاه (أهل العاهات) كيف يمكن أن توصل الإرادة الحبيسة صاحبها إلى الجنون ، وكأنه يتحدث عن نفسه وعن حبه لكوزيما :

«وا أسفاه ! إن كل سجين يصبح مجنوناً ، وما تنقذ الإرادة السجينة نفسها إلا بالجنون» .

نعم لقد أنقذت إرادة نيتشه السجينة نفسها بالجنون . وعندها فقط تحررت تلك الإرادة من أسرها فكتب نيتشه لكوزيما تلك الرسالة الحزينة الممزقة التي تتكون من ثلاث كلمات كانت تحمل كل اضطراب نيتشه وكل اضطرام مشاعره التي ألهبها العشق :

«كوزيما . أنا أحبك» .

لقد كان من الضروري لرجل يتحلى بكل هذا القدر من الرومانسية ، أن يبتكر حيلاً نفسية تعبر عن شوقه للمرأة وتعلقه بها وحاجته إليها طالما أن وعيه يرفض الاعتراف فضلاً عن التصريح المباشر بهذه الحقيقة .

بالتأكيد كان ما يدفع نيتشه إلى كتمان مشاعره التي كان يكنّها لكوزيما ، ربما حتى عن نفسه ، هو نفوره من النذالة ، إذ كيف يستقيم لنيتشه النبيل أن يعترف بحبه لزوجة فاجنر الذي كان يوماً صديقه ، والذي كفر به نيتشه بعد ذلك وقاطعه لأنه خذله كموسيقي . لقد قال نيتشه أكثر من مرة إن كوزيما هي المرأة الأعظم التي قابلها ، وإن فاجنر لم يكن يجاريها في عظمتها ، لكن هل يمكن أن يكون هذا مبرراً كافياً لنيتشه ليجعله في حلٍّ من نبله وفروسيته؟

أليس نيتشه هو القائل من خلال كتابه هكذا تكلم زرادشت في الفصل الذي سمّاه (الوغد) :

«ما صعب على الاعتقاد باحتياج الحياة إلى العداء والقتل والاستشهاد ، كما صعب على التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها» .

لا . . لم يكن نيتشه وغداً ولا يمكن أن يكون . . لذلك لم يصرِّح بحبه لكوزيما ربما حتى لنفسه . ولو كان صرح بهذا الحب لنفسه وتصالح مع مشاعره تجاه محبوبته ، لما انتظر حتى يجن ليعبر بحرية عن هذا الحب .

* * *

بالنسبة إلى زوربا فإن الأمر لم يكن بحاجة إلى ابتكار حيل نفسية من قبل اللاوعي الذي طالما سخر قلم نيتشه ليعبر عن مكبوتاته . زوربا صادق مع نفسه ومخلص لبشريته ومتصالح مع ضعفه ، ولذلك فهو لا يضيع وقته أبداً . . إنه يفعل ما يريد وقتما يريد ويلقي بنفسه في أتون الحياة من دون أن يُقحم الفكر فيما لا طائل من وراء إقحامه فيه .

تأمل هذا الحوار بين زوربا وصديقه الكاتب :

«- لماذا لا تؤلف يا زوربا ، وتشرح لنا كيف يكون هذا العالم؟

- لماذا؟ لأنني أنا قد اختبرت جميع أسرار هذا العالم ، وليس لدي الوقت لأكتب عنه . مرة النساء ، ومرة ثانية الحرب ، وأخرى الخمر والسانتوري - آلة موسيقية يونانية - فأين لي أن أحظى بالوقت الكافي لأمسك بالقلم لأكتب أشياء ليست ذات معنى؟ جميع الذين يكتبون لديهم الوقت الكافي ، فجميع

الذين يعيشون هذه الألغاز ليس لديهم الوقت لمثل هذا الهراء . ومن عنده وقت لا يختبر مثل هذه الألغاز هل تفهم ما أعنيه؟» .

زوربا ، فيلسوف اللذة ، ليس شهوانياً فحسب . زوربا عربيد يسكنه متصوف . إنه ناسك متبتل في محراب الجمال . . نبع اللذات اللانهائية .

تأمل هذه العبارات وهو يصف الأرملة الشابة لصديقه ويرغبه فيها . . انظر كم تحتوي هذه العبارات على حس جمالي فريد بقدر ما هو أصيل :

«لقد شاهدتها عن قرب ، فعلى خدها يرتاح خال جميل . إنها لتأخذ عقلك . يا له من لغز هذا الخال ، وخصوصاً على وجنات السيدات . هل جربته أيها الرئيس؟ تشعر بالبشرة ناعمة عذبة ، وفجأة ترى بقعة صغيرة سوداء ، أليس هذا يكفي ليسلب عقلك؟ أتعرف هذا أيها الرئيس؟ أخبرني ما الذي قرأته في كتبك؟» .

هذا الإحساس بالشجن الذي يتجلى في وصف زوربا لتلك البقعة السوداء التي نسطحها ونظلمها ونعلبها عندما نطلق عليها تسمية جامدة لا تفي بعشر معشار حقها : «شامة» . تأمل هذا الإحساس بالشجن ، هل هناك ما هو أرقّ أو أرقى أو أكثر تصوفاً منه؟

بينما قارن الآن بين شعور زوربا تجاه المرأة ، وبين مشاعر نيتشه التي لم تكن تنزع إلى الزهد بقدر ما كانت تنطلق من الخوف من المرأة . . أو بالأصح خوفه من ضعفه أمامها لأنه يكنّ لها كل تلك الشهوة وكل ذلك الحب وكل ذلك الاحتياج والشوق .

يقول نيتشه في كتابه هكذا تكلم زرادشت من خلال الفصل الذي أطلق عليه (النزاهة) :

«لخير أن يقع الرجل بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبة» .

***

كم كانت عبارة نيتشه محملة بضعف يكابر على الاعتراف بحقيقته . وكم كانت عبارات زوربا وهو يصف الأرملة الشابة ويزين لصديقه الكاتب إقامة علاقة عاطفية معها ، طافحة بالشجن . . تلك الحالة من السعادة الحزينة . . حيث يتكلل الرضا بمسحة حزن ، ويتوج الفرح بغصة لا ندري بالضبط من أين تسربت إلينا ، ولا نعرف كيف تسللت إلى فرحنا المغدور .

الشجن . . تلك الحالة الشعورية الأكثر تعقيداً . . إنها حالة من حالات الكشف الصوفي ، ففي قمة فرح التوحد مع نبض الحياة ومع إرادة الخالق ، يتجلى كل شيء أمام أعيننا بوضوح عجيب . . فجأة ومن دون سابق إنذار نصبح قادرين على هتك الحجب التي تخفي وراءها الحقيقة الأزلية . . فجأة ونحن في غمرة الفرح الإلهي ونشوة التوحد ، نحس بأننا اقتربنا من الموت . . نحس أن كل تلك اللذة الروحية التي تتوج بألم الكشف ونشوته ، ستزول قريباً ، وبالتحديد عندما نزول نحن ونصبح طعاماً للأرض التي كانت يوماً بيت ملذاتنا :

«إن فؤاد الإنسان يعتصر ألماً ويغتم عندما يبدأ المطر بالتساقط . ويجب أن لا نلومه على ذلك» .

إنها إحدى لحظات الكشف الصوفي أو الشجن التي يعرفها زوربا جيداً ، ويصل إليها كثيراً .

تأمل الآن زوربا وهو يتابع عباراته بعد أن قطف زهرة وقدمها لصديقه الكاتب :

«لو كنا نلم بما تقوله ،الأحجار ،والأزهار والمطر أيها الرئيس؟ ربما تهتف بنا ، تنادينا ، ونحن لا نصغي ، وإن أصغينا فلا نفهم . متى سيسمع الناس ، بل متى سيبدأون الفهم ، متى سنمد أيدينا لنضم الجميع إلى صدورنا ، الجميع من دون استثناء . الأزهار والأحجار وحتى المطر . . ما الذي تقوله عن هذا أيها الرئيس؟ ما الذي قرأته في كتبك؟» .

هذه المشاعر الطافحة بالمحبة لا يمكن أن تصدر إلا عن كائن متصالح مع نفسه إلى أبعد الحدود . . وزوربا كان متصالحاً مع نفسه لأنه متصالح مع الحياة ، ومتصالح مع الحياة لأنه متصالح مع نفسه ومتصالح مع بشريته بكل ما فيها من مكامن قوة وضعف .

لم تكن هناك فجوة ولو ضيقة تفصل بين مشاعر زوربا وفكره وسلوكه . لقد كان الرجل منسجماً مع نفسه لأنه عرف كيف يضع للفكر حدوداً رغم ذكائه النادر . . وهو ما فشل المتمرد المسكين نيتشه في الوصول إليه .

الفصل الثالث
الحياة تبرّر نفسها

اذهب يا نيتشه إلى أوراقك وأقلامك ، شيّد مدن القوة وهيئ الأرض لتكون منزلاً يليق بالإنسان الجديد القادم. . . الإنسان الإله .

يقول نيتشه في كتابه هكذا تكلم زرادشت :

«ليس الإنسان إلا كائناً وجب عليه أن يتفوق على نفسه» .

وفي موقع آخر من الكتاب نفسه يعلن نيتشه حربه على الله لصالح الإنسان المتفوق : «لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرحون أبصارهم على شاسعات البحار ، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الإنسان المتفوق» .

اذهب يا نيتشه أنت وزرادشتك فشيّدا مملكتكما ، ودعا كل ذلك الجمال لزوربا ، فهو أحق به منكما . ليس هناك إله بديل يا نيتشه . . فالحياة لا تتسع لكلِّ هذا الكمّ من الآلهة .

***

من جهته فإن زوربا لم يعلن الحرب على الله ولم يعلن الحرب باسمه ، فزوربا كان ينكر كل شيء لأنه لا يعرف شيئاً وليس متأكداً من وجود شيء سوى جهله ، ولذلك فهو لا يؤمن بشيء ، وربما لا ينكر شيئاً أيضاً :

«كلا أنا لا أومن بشيء بالمرة . كم مرة يجب أن أكرر هذا . فأنا لا أومن بأي شيء أو أي شخص . بل بزوربا وحده ، ليس لأن زوربا أفضل ، كلا فهو بهيمة كغيره . ولكن لأن زوربا هو الوحيد الذي يقع تحت سلطتي ، والوحيد الذي أعرفه . أما الباقون فكلهم أشباح . فأنا أرى بهاتين العينين ، واسمع بهاتين الأذنين ، وأهضم بهذه المعدة . كل الباقون أشباح أقول لك ، عندما أموت سيموت كل شيء معي . كل العالم الزوربي سوف يغوص إلى الأعماق» .

ها هو زوربا الوجودي أو العدمي ، سيّان ، يستيقظ من رماد زوربا الناسك المتصوف .

أيكون هذا المتصوف متمرداً إلى هذا القدر . .؟ كيف يمكن أن يكون لتمرده عبق الأصالة ورائحة الأرض وفجاجة الواقع وقسوة الحقيقة؟

إذا كان هناك تمرد من لحم ودم ، فهو هذا التمرد الزوربي ، وإذا كان هناك تمرد من حبر وورق فهو ذاك التمرد النيتشوي . . وبين اللحم والدم والورق والحبر ، مسافة توازي المسافة التي تفصل بين زوربا ونيتشه . . توازي المسافة التي تفصل بين الحقيقة والوهم .

انظر إلى زوربا هنا كيف يعبر عن تمرده من خلال هذا المقطع من الرواية الذي يستهله الكاتب بالحديث عن نفسه ، قبل أن يدور بينه وبين زوربا حواراً اتسم بمنتهى الصراحة :

«كنت قد نظمت في صغري مع اقرب أصدقائي جمعية سرية تدعى «المجتمع الودي» هذا كان الاسم الذي أطلقناه عليها . وداخل غرفة نومي المغلقة أقسمنا اليمين لنكرس حياتنا من أجل محاربة الظلم . دموع غزيرة انهمرت فوق وجوهنا عندما أقسمنا اليمين وأيدينا فوق قلوبنا .

ولكن عندما شاهدت ما صار إليه أعضاء المنظمة ، من أطباء مدَّعين ، ومحامين غشاشين ، وأصحاب محلات ، وسياسيين دجالين ، وصحفيين خونة . غاص قلبي إن مناخ هذه الأرض أصبح جلفاً قاسياً ، وأثمن البذور لا تنمو وتختفي تحت الأرض وبين الشوك والقراص .

كنا أيام الآحاد نحضر أنفسنا بكل عناية وكأننا شابّان يحضران نفسيهما للزواج ، ونتوجه بعد الظهر لرؤية السيدة هورتنس . كانت كل يوم أحد تذبح لنا طيراً وذات أحد وبينما كنا عائدين من وليمتنا الممتعة ، قررت أن أخبر زوربا بمشاريعي الاشتراكية مع العمال الذين يعملون لمصلحتي . أصغى إلي مجبراً نفسه ، وضاغطاً عليها ليكون صبوراً بما يكفي . إلا أنه من وقت لآخر كان يهز رأسه الضخم بغضب ظاهر . . كلماتي الأولى جعلته يصحو من سكره . . وطردت الخمرة من رأسه . وعندما انتهيت نزع بعصبية شديدة شعرة أو شعرتين أو ثلاثة من شاربه وقال :

- اعذرني أيها الرئيس لما سأقوله ، ولكن لا أعتقد بأن عقلك قد اكتمل بعد ، كم تبلغ من العمر؟

- خمس وثلاثون سنة .

- إذن فهو لن يكتمل أبداً .

وانفجر مقهقهاً . وشعرت بأني قد لسعت . وصحت به :

- ألا تؤمن بالإنسان؟

- لا تندفع غاضباً أيها الرئيس ! فأنا لا أؤمن بشيء . فلو كنت أؤمن بالإنسان . . فلو كنت أؤمن بالإنسان لآمنت بالله . ولكنت آمنت بالشيطان أيضاً . وهذه هي كل المشكلة حيث تختلط الأشياء وتسبب لي كثيراً من التعقيد» .

هذا تمرد من لحم ودم ، وهو فوق ذلك تمرد عميق . فالمرء الذي يفقد إيمانه بالإنسان يفقد إيمانه بالله ، على العكس مما يعتقد كثير من المتدينين . الإنسان خليفة الله في الأرض حسب كل الأديـان ، ومن يفقد إيمانه بالخليفة لا بد وأن يفقد إيمانه بالمُستخلف .

لكن زوربا لم يكن ملحداً في العبارة السابقة . إنه لا يفهم إلا الحقيقة البسيطة التي تعلن عن نفسها بتواضع ، أما الحقائق المتشابكة التي تؤدي حسب وصفه إلى اختلاط الأشياء وتسبب له كما قال ، الكثير من التعقيد ، فإنه لا يفكر فيها كثيراً .

هذا هو التمرد الزوربي .

* * *

والآن قارن بين تمرد زوربا وبين تمرد نيتشه . يقول نيتشه في كتاب هكذا تكلم زرادشت عن الإيمان :

«إن الله افتراض وأنا لا أريد أن يذهب بكم الافتراض إلى أبعد مما تفترض إرادتكم المبدعة» .

ثم يضيف موضحاً :

«إن الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور ، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلهاً؟ فاعرفوا من هذا أن واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا إلى ما لا يبلغه تصور الإنسان وبصره وحسه . أمسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم» .

وفي موقع آخر من الفصل نفسه يقول نيتشه :

«إن الله عبارة عن إيمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم ، فالزمان لدى المؤمن وهم ، وكل فانٍ في عينيه بطل وخداع ، فهل مثل هذه الأفكار إلا أعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها؟ تلك افتراضات يدور المبتلى بها على نفسه كالرحى حتى يموت» .

وفي موقع آخر من الفصل نفسه يقول نيتشه :

«على من يطلب المعرفة ألا يتورط في ما يريده العقل من المعميات» .

لكن إذا كان الله افتراضاً ، أليس الإنسان المتفوق افتراضاً هو الآخر . .؟

نيتشه لم يرفض مبدأ الافتراض نفسه ، ولكنه رفض الفرضية ، ولذلك فقد حاول إيجاد فرضية بديلة بينما ترك مبدأ الافتراض نفسه مفتوحاً ومعمولاً به . . هذا كل ما في الأمر .

الإنسان المتفوق أو السوبرمان لم يظهر حتى وقتنا هذا ، والحديث عن ظهوره سيظل افتراضاً ما لم تدركه الحواس التي جعل منها نيتشه معياراً لاختبار مصداقية افتراض وجود الله . . الإنسان المتفوق مجرد افتراض هذا إذا لم نقل إنه خيال محض أو خرافة من الخرافات الكبرى مثله مثل العنقاء والتنين . . إذا لماذا أصرّ نيتشه رغم كل ذلك على الحديث عن الإنسان المتفوق وكأنه يتحدث عن حقيقة ثابتة؟

لقد قال نيتشه عن الإيمان بالله أو الإيمان بالغيب إنهما افتراضان يدور المبتلى بهما على نفسه كالرحى حتى يموت . . ولكن ماذا عن فرضية الإنسان المتفوق . .؟ ألم يدر نيتشه الذي كان خالق هذه الفرضية والمبتلى بها ، على نفسه كالرحى حتى جُنّ . .؟

في المقابل فإننا لم نسمع عن مؤمن جُن بسبب إيمانه ، فما الذي يمكن أن يقوله نيتشه عن ذلك . .؟ ما الذي يمكن أن يقوله عن انهيار جهازه العصبي الذي لم يحتمل ضغط فكرة التحول من الإنسانية إلى الألوهية . .؟ ما الذي يمكن أن يقوله نيتشه عن ذلك . .؟ ما الذي يمكن أن يقوله؟

عبر السطور التالية ومن خلال الحوار التالي بين زوربا وصديقه الكاتب وكأن زوربا يناقش فيه نيتشه لا صديقه الكاتب فحسب :

«- البعض يحولون الطعام إلى سمن وأوساخ ، والبعض للعمل والمرح . والآخرون ، كما قيل لي إلى الله . إذن ، فهناك ثلاثة أنواع من الرجال . وأنا لست من أسوأهم ولا من أحسنهم ربما بين الاثنين . فالذي أتناوله أحوله إلى عمل وإحساس بالمتعة وهذا ليس سيئا بالمرة .

- ونظر إلي بخبث وراح يقهقه . ومن ثم تابع .

- أما بالنسبة إليك أيها الرئيس ، فأنا أظن بأن كل ما تتناوله تحاول أن تحوله إلى إله . ولكنك لا تستطيع أن تتدبر هذا . وهذا ما يضايقك . وتقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الغراب .

- ما الذي وقع فيه الغراب يا زوربا؟

- أنت تعلم بأنه كان يسير باحترام وانتظام . تماماً كالغراب . إلا أنه ذات يوم خطر بباله أن يتبختر كالحمام فلم يستطع أن يتعلم المشية الجديدة ، بل نسي مشيته القديمة ولم يعد يعلم كيف يمشي وراح يعرج» .

***

هذه هي أزمة نيتشه الحقيقية . إنه فعل مثلما فعل الغراب على حد تعبير زوربا ، فنيتشه لم يتقبل إنسانيته وراح يعمل كل ما بوسعه للخروج من الدائرة الإنسانية والالتحاق بدائرة الآلهة . وهكذا نسي نيتشه مشيته الأصلية ولم يكتسب المشية الجديدة بل راح يسير وهو يعرج . ولقد كان الجنون الذي أصاب نيتشه في سنواته الأخيرة نتيجة طبيعية لهذا الصراع المرير الذي لا يستطيع أحد أن يتحمله .

لقد كان نيتشه مؤمناً حتى العظم وهو ما دفع به كما أشرت سابقاً إلى اختراع إله بديل لأنه لم يحتمل فكرة إنكار وجود الله .

في كتابه هكذا تكلم زرادشت يكشف نيتشه بمنتهى الحذق والعبقرية والجرأة ومن خلال الفصل الذي أطلق عليه (المسحورون بالعالم الثاني) ، عن حقيقة دوافع كثير من المؤمنين التي تنتج عن المعاناة والشقاء وعدم القدرة على دفع ضريبة الحياة ، لا عن الحب الإلهي :

«لقد شاؤوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة فتنهدوا قائلين : وا أسفاه ! لم لا تنفتح أمامنا سبل في السماء ننسحب عليها إلى وجود آخر وإلى سعادة أخرى ؟» .

لكن أولم يرد نيتشه أن يهرب من الشقاء عن طريق اختراع إله بديل هو السوبرمان؟ ألم يجد نيتشه في السوبرمان بديلاً لما يتعلق به المؤمنون؟

انظر إلى نيتشه الآن وهو يضيف من خلال الفصل نفسه كاشفاً دوافع كثير من المتدينين :

«إنهم يلتفتون دائماً إلى الوراء ، إلى الأزمنة المظلمة ، إذ كان للجنون والإيمان حلتهما الخاصة ، فكان الإله يتجلى في هوس العقل وكانت كل ريبة خطيئة» .

لكن ألم يكن نيتشه يهرب إلى المستقبل بدلاً من الماضي ؟

ألم يكن نيتشه ردة فعل للمؤمنين وهو يطرح المستقبل بديلاً عن الماضي في محاولة هرب صريحة من الحاضر أو الواقع ؟

ألم يكن نيتشه بقدر ذكائه في وصف الكثير من المؤمنين ، مطابقاً لهم حيث إن إيمانه بالسوبرمان أو الإنسان المتفوق لم يكن ليتزعزع تحت أي ظرف من الظروف؟

ألم يكن نيتشه مطابقاً لكثير من المؤمنين الذين يعتبرون كل ريبة بما اعتنقوه خطيئة ، وهو الذي لم يكن يرتاب بإيمانه بالخلاص الآتي على أجنحة المستقبل وعلى يدي الإنسان المتفوق .

إذا كان إيمان التقليديين هوساً كما اعتبره نيتشه ، فما الذي يمكن أن يقوله عن إيمانه هو . .

ما الذي يمكن أن يقوله عن إيمانه بالإنسان المتفوق؟

ألـم يكن نيتشه يعترف بأنه تابع للخيالات والأوهـام ، في الوقت نفسه الذي كان يأخذ فيه على كثير من المؤمنين حسب ما يزعم ، بأنهم أتباع للهوس والضلالات والافتراضات والهلوسات المرضية؟

انظر إلى نيتشه هنا وهو يتحدث عبر الفصل الذي أطلق عليه (محبة القريب) ، كيف يجاهر في لحظة صدق برهانه على الخيال الذي يحمل المستقبل الذي يتمناه على جناحيه :

«إن ما أشير به عليكم هو أن تنفروا من محبة القريب لا أن تحبوه ، وذلك لتتمكنوا من محبة الإنسان البعيد ، فإن ما فوق محبة القريب محبة الإنسان البعيد المنتظر ، وإني أضع فوق محبة الإنسان محبة الأشياء والأشباح» .

* * *

التمرد الزوربي مختلف تماماً عن تمرد نيتشه ، ذلك أن التمرد الزوربي ليس موجهاً ضد فكرة وجود الله ولم يهدف إلى إثبات بطلان هذه الفكرة أبداً ، كما أنه لم يهدف إلى إثباتها أو لاختراع بديل لها . التمرد الزوربي كما قلت سابقاً ، ليس إنكارياً ، وإنما استنكاري . زوربا لا يفهم ولذلك فهو لا يؤمن إيماناً أعمى . . هناك عشرات الأشياء في نظام الوجود التي لا يفهمها ولا يتواءم معها . . إنه يعرف بأنه لا يعرف ، ويعترف بأنه لا يعرف ، ولذلك فهو ليس مؤمناً وليس ملحداً أيضاً .

الإيمان حالة معرفية خالصة وكاملة . . والمعرفة الخالصة والكاملة لا تحتاج إلى أدلة أو براهين . . أما زوربا فهو يحتاج إلى جيش جرار من الأدلة والبراهين . . زوربا يريد تفسيراً للعديد من الأشياء لذلك فهو لا يتوقف عن أن يشفع أسئلته التي يوجهها إلى صديقه الكاتب ، بالسؤال الذي ظلّ يتردد طوال صفحات الرواية «هل قرأت في كتبك شيئاً عن هذا؟» .

ما قيمة الكتب إذا لم تقدم إجابات ضافية وتفاسير وافية . .؟ ألا تدعي الكتب أنها تحاول فهم العالم . .؟ أي شوط قطعته حتى الآن في سبيل تحقيق هذه الغاية . .؟

كل الأسئلة التي أطلقها البشر منذ بداية الوجود لم تنجح الكتب في الإجابة عنها حتى الآن . . إذن فلتذهب الكتب إلى الجحيم ، وليذهب الإنسان الحكيم إلى ينابيع الحياة الأصيلة علّه إذا ارتشف من مائها العذب ، أن يستغني عن محاولة الفهم .

قلق هو زوربا لأنه لا يفهم ، لكن قلقه هذا لا يحول بينه وبين تلبية نداء الحياة الذي يزمجر كالرعد داخله .

لكن زوربا يعود دوماً ، فتمرده لم يقطع عليه خط الرجعة ، ولذلك فهو يبدي في الأسطر التالية فهماً وتقديراً عميقين لظاهرة الإيمان :

«الإيمان هو كل شيء ، فإن كان معك قطعة من باب قديم فتصبح حجاباً مقدساً . وان لم يكن لديك هذا الإيمان ، فإن الصليب المقدس كله سيتحوّل إلى باب خشبي قديم» .

*   *   *

نيتشه لم يكن قلقاً بقدر ما هو غاضب . . غاضب نيتشه إلى درجة الحنق . . وإذا كان القلق يورث الإبداع ، فإن الغضب والحنق يورثان الحسرة والمرارة ويصبغان الإبداع بصبغة الألم المزمن والانتقام العاجز .

لقد كان زوربا يهرع إلى تلبية نداء الحياة الذي يصدر من الداخل أياً كان الوقت الذي يستمع فيه إليه . . وإذا استطعنا أن نلبي نداء الحياة الوحشي الذي يزمجر داخلنا ، فإنه يمكننا أن نتعايش مع قلقنا وحيرتنا وأسئلتنا التي لا تنتهي .

هذه هي وصفة زوربا السحرية لتحويل العيش من ضريبة إلى امتياز :

«لقد تخلصت من التفكير بما حدث البارحة . وكذلك لم أعد أفكر بالذي سيحدث غداً . إن ما يجري اليوم وفي هذه اللحظة هو

الذي أفكر به . فأنا أقول : ما الذي ستفعله الآن يا زوربا؟ تنام؟ إذن نم جيداً - ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ تعمل؟ إذن اعمل بجد . ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ تعانق امرأة؟ إذن عانقها بحرية . ولتنس كل شيء آخر . فالعالم لا يوجد فيه إلا هي وأنت» .

هذا الاستغراق في اللحظة . . في الحاضر . . هذه القدرة على التحرر من سلطان الزمن . . هذه القدرة على التحرر من الندم والأسى من ناحية ، ومن الخوف والقلق من ناحية أخرى . . هي وصفة زوربا السحرية .

اقبض على ما بين يديك بقوة ، لكن لا تطمح في امتلاكه . . فإذا كنت لا تملك نفسك ، فكيف تحرص على امتلاك الأشياء والحفاظ عليها . .؟ وفي هذا فإن زوربا يلتقي مع فيلسوف الزهد والتقشف بوذا الذي يقول :

«يقلق الأحمق مفكراً : «عندي أولاد ، عندي ثروة» حقاً عندما لا يملك ذاته نفسها ، فكيف بالأولاد؟ كيف بالثروة؟» .

نيتشه كان يغازل المستقبل لأنه يرفض الحاضر . . والحاضر أو اللحظة الراهنة ، هو الحقيقة الوحيدة التي نستطيع أن نقبض عليها ونتأكد من وجودها .

يقول نيتشه :

«إن عظمة الإنسان قائمة على أنه معبر وليس هدفاً ، وما يستحب فيه هو أنه سبيل وأفق غروب» .

الإنسان ليس معبراً ، وليس جسراً إلى ما هو أفضل كما يعتقد نيتشه ويؤمن . الإنسان غاية في حد ذاته كما يؤمن زوربا . . وهذا المحبة الزوربية للإنسان هي التي أوصلت صاحبها إلى الإيمان بالحياة . . وهي التي أوصلته إلى الإيمان بالحرية .

يقول نيتشه مغازلاً المستقبل :

«ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو إليه في يومك ، فتحب في صديقك الإنسان المتفوق ، وتضعه نصب عينيك .

لا أشير عليكم بمحبة القريب أيها الأخوة ، بل بمحبة الآتي البعيد» .

والآن تأمل عبارته التي وردت من خلال الباب الذي أطلق عليه (في بلاد المدنية) كيف يغازل المستقبل ويضع كل ما يملك رهن إشارته :

«لا وطن لي بعد اليوم إلا وطن أبنائي في الأرض المجهولة وسط البحار السحيقة ، لذلك وجب علي أن أندفع بشراعي على صفحات المياه لأفتش عن هذا الوطن .

عليّ أن أكفّر عن ذنبي أمام أبنائي لأنني كنت ابناً لآبائي . علي أن أكفر عن حالي العتيد بكل جهودي في آتي الزمان» .

وانظر إليه الآن كيف يحقر الماضي والحاضر لصالح المستقبل من خلال الباب الذي سمّاه (أهل العاهات) :

«إن أشد ما يقع علي أيها الصحاب إنما هو الحاضر والماضي ، وما كنت لأطيق الحياة لو لم أكن مستكشفاً ما لا بد من وقوعه في

آتي الزمان ، وما زرادشت إلا بصارة تخترق الغيب ، فهو رجل العزم وهو المبدع ، هو المستقبل والمعبر المؤدي إلى المستقبل» .

هذه هي إحدى أزمات نيتشه الرهيبة . . تلك الأزمة التي تكمن في رفضه أو ربما عجزه عن التكيف مع الواقع أو ربما مع إنسانيته ، ما حدا به إلى إقصاء الحاضر فكرياً ، لكن ما لم يدركه نيتشه هو أن المستقبل لا يمكن أن يأتي عن طريق إقصاء الحاضر بل تطويره .

لم يكن نيتشه يطمح في إصلاح الإنسان ولكن في استبداله بكائن آخر أطلق عليه الإنسان المتفوق أو السوبرمان . . ولم يكن نيتشه يسعى إلى تطوير الحاضر بل إلى إلغائه أو هدمه تمهيداً لإقامة بناء المستقبل على أنقاضه .

وشخص كهذا لم يكن يتطلع إلى المستقبل كما كان يدعي ، بل كان يتطلع إلى إنشاء جديد خارج عن أي سياق ومعزول عن أي مرحلة سابقة .

الضعفاء والحالمون فقط هم الذين يلجؤون إلى آلية الإقصاء العنيفة . . ونيتشه رغم كل جبروته وعظمته ، كان مزيجاً من الطرفين .

***

في المقابل فإن زوربا هو الآخر كان يعرف عن دناءة الإنسان ما لا يعرفه إلا القلة من المفكرين..

يقول زوربا لصديقه الكاتب قبل بداية الحفل الذي أقاماه لتدشين شركتهما :

«يجب أن نلبس الياقات والكرافتات . لنتنكر تحت الأقنعة . ليس من المهم أن يكون للإنسان رأس بل قبعة فقط . أيها الرئيس ، إن العالم لا يستحق إلا أن نتفل عليه» .

لكن زوربا كان محباً للإنسان رغم كل ما يعرفه عنه من مثالب ونقائص ، وكان أيضاً مخلصاً للحاضر . . والإخلاص للحاضر يعني الانعتاق من الأسى والخوف . . الانعتاق من قيود الماضي وأصفاد المستقبل . . وفي هذا فإن زوربا يلتقي مرة أخرى مع بوذا حيث يقول الأخير في واحدة من أعمق حكمه :

«تحرر من الماضي ، تحرر من المستقبل ، اعبر إلى الشاطئ الأبعد من الوجود ، وبفكر متحرر تماماً ، عليك ألا تعود إلى الولادة والموت» .

زوربا الغارق في ملذاته ، وبوذا الغارق في تقشفه ، يتوافقان ويتوصلان إلى نتائج مشتركة أكثر من مرة .

أيكون لتمرد زوربا وعبثيته وشهوانيته ، هذا الطابع الصوفي المتقشف؟

نعم زوربا يتوصل إلى النتائج نفسها التي توصل إليها بوذا . . الاثنان تحرّرا من سلطة الزمن ووجدا الوسائل المناسبة لإشهار راية العصيان عليه . . صحيح أن وسائل زوربا تختلف اختلافاً كلياً عن وسائل بوذا التي تعتمد على إماتة الرغبة لا إنعاشها كما هي الحال مع زوربا ، لكن العبرة تظل دائماً بالنهاية . . والنهاية أن زوربا وبطريقته الخاصة استطاع أن يحصد الثمرة نفسها

التي حصدها بوذا . . الاثنان نجحا في التحكم بالزمن بدلاً من الارتهان إليه . . وهذه هي معجزة زوربا ناسك الشهوة وحارس الغريزة الأمين .

زوربا لا يريد أن يتجاوز الزمن كما هي الحال مع نيتشه ، ولا يريد أن يعود إلى الوراء حاله حال كل التقليديين والمحافظين . . زوربا يريد أن يجمّد الزمن وأن يوقف عقارب الساعة عن الدوران .

زوربا غير المؤمن أحياناً ، المتمرد دائماً ، يود أن يعيش أبديته على الأرض .

ولكي تعيش الأبدية يجب أولاً أن تتحرر من سلطان الزمن . . يجب أن يتجمد الزمن . . لكن كيف . .؟ كيف . .؟ :

«إني أظن بأن من العار الشديد أن أعترف بأني أسير نحو الشيخوخة ، وأعمل ما بوسعي حتى لا يرى الناس بأنني أصبحت مسناً . فأنا أقفز ، أرقص ويؤلمني ظهري إلا أني أتابع الرقص . أشرب ، وأثمل ويدور كل شيء حولي ، إلا أني لا أجلس . وأتظاهر كما لو أن كل شيء على ما يرام . أتصبب عرقاً فاندفع نحو البحر ، وأصاب بالبرد وأشعر بالسعال ، أوه . . أوه . . لأريح نفسي ، إلا إني أشعر بالخجل وأعيد السعال إلى داخلي . هل سمعتني أسعل؟ أبداً لا تظن بأني لا أسعل فقط عندما يكون حولي بعض الناس ، كلا ، فعندما أكون بيني وبين نفسي أشعر بالخجل أيضاً . أشعر بالخجل من زوربا» .

يجب أن يتجمّد الزمن . . يجب أن يتوقف عن الحركة حتى لا يسعل زوربا . . لكن كيف . .؟ كيف . .؟

هذا هو السؤال يا زوربا . . هذا هو السؤال .

الفصل الرابع
الخديعة الكبرى

كل الأذكياء لا بد وأن يصطدموا بقوانين الوجود . العالم في نظرهم ليس كاملاً ، ومن هذه النقطة بالتحديد ينطلق العبقري وتبدأ عبقريته في التفتح .

لكن العباقرة أنـواع ، وإذا كان كل العباقرة يدركون حقيقة عدم كمال العالـم ، فإن البعض منهم ينساق وراء وهم إمكانية إصلاحه . . وهذه هي حماقة العبقرية الأبرز .

بوسعنا بل ومن واجبنا دومـاً أن نرفض العالـم ، أو بالأحرى نرفض وجوه القصور فيه ، لكن من الاستحالة علينا تغيير قوانينه الجوهرية . . وأي محاولة لتحقيق هذا التغيير هي عبث ناتج عن السذاجة التي تدخل في صميم تكوين ما يسمى بـ : العبقرية .

سذاجة نيتشه وأفلاطون زيّنت لهما البحث عن الكمال وضللتهما عندما صورت لهما إمكانية إيجاده . لكن سذاجة زوربا لم تنعكس على تفكيره ، لأنها لم تتخطّ حدود انفعاله الذي كانت تسيطر عليه الدهشة دائماً . . وهذه هي عبقرية السذاجة .

انظر هنا إلى الكاتب صديق زوربا ، وهو يصف جانب الطفولة في صديقه عبر هذا المقطع من الرواية :

«إنه أشبه بطفل ، يرى كل الأشياء كما لو أنه يراها لأول مرة . فهو يتعجب دائماً ويتساءل . كل شيء يراه يبدو له كمعجزة . وكل صباح عندما ينهض ويفتح عينيه ويقع نظره على الأشجار والبحر والطيور والصخور ، يقف مندهشاً فاغراً فاه . ويصيح «يا لهذه المعجزة . ما كل هذه الألغاز التي تسمى ، شجرة ، بحر ، وطير» .

ويتابع الصديق وصفه لزوربا : «أستطيع أن أتذكر ، ذات يوم ، كنا نتجه نحو القرية ، التقينا برجل عجوز فوق بغلة ، وجحظت عينا زوربا واستدار ناظراً إلى المطية . لا بد وأن تحديقه كان قوياً ، ما جعل العجوز ينتبه وجعله يصيح :

- بالله لا تصبه بالعين .

- ورسم إشارة الصليب . نظرت نحو زوربا وقلت :

- ما الذي فعلته للعجوز حتى صاح هكذا؟

- أنا لم أعمل أي شيء ، لقد حدقت بالبغل قليلاً . ولكن ألا يجعلك هذا تتعجب أنت أيضاً؟

- أتعجب؟ لماذا؟

- أن يكون هناك بغال فوق الأرض» .

ربما يكون لعدم ثقافة زوربا دوره في الإبقاء على عبقريته خالية من الشوائب . . والثقافة شائبة تحول في كثير من الأحيان ، بين الإنسان وبين الحياة . الثقافة كثيراً ما توقع صاحبها في أسر الأفكار الجاهزة والنظريات المجردة ، والحياة ليس فكرة بقدر ما هي واقع .

يقول زوربا لصديقه الكاتب ساخر :

«الكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو السندباد البحري» .

لقد كان زوربا يحتقر الكتب لأنه يحتقر العقل عندما يقحم نفسه في مجالات لا تقع ضمن دائرة اختصاصاته أو مجال سلطته .

يقول زوربا لصديقه الكاتب ، محقراً عالم الكتب :

«عندي فكرة أريد أن أطرحها عليك أيها الرئيس ، ولكن يجب ألا تغضب . لماذا لا نجمع كل كتبك ونضرم فيها النار . وبعدها من يدري؟ فأنت رجل قوي ومقدام ، يمكن أن نخلق منك شيئاً» .

أما نيتشه فهو يقول في واحدة من أصدق عباراته التي تجسد عجز المؤلفين وقلة حيلتهم وادعائهم من دون أن يستثني نفسه منهم :

«إذا قال الإنسان بكل جد : إن الشعراء يكذبون ، فإنه ليقول حقاً لأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً ، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلاً» .

***

زوربا يحتقر الكتب لأنه يحتقر الكذب ، ويحتقر الكتب إذا كانت غاية مؤلفيها خلق عالم بديل . . ورغم أن زوربا لا يقرأ فإنه يعرف أن كل الكتب تقريباً ، تهدف إلى الوصول إلى هذه الغاية .

إنه لم يكن يستطيع أن يهضم النظرية التي تقول بأن العقل هو أداة المعرفة الوحيدة :

«أنت تفهم بعقلك فقط . فأنت تقول : (هذا عادل وهذا ظالم ، هذا هكذا . . وهكذا . . صحيح أو خطأ) . ولكن ما الذي نفيده من هذا؟ فعندما تتكلم أنظر إلى يديك وصدرك فأجدهما ساكنتين لا تتحركان ، كأنه لا يوجد بها نقطة دم واحدة . إذن فبأي شيء تفهم؟ بعقلك؟ بف» .

وفي هذا فإن زوربا يلتقي بفيلسوف الفطرة جان جاك روسو الذي يعول على الغرائز أكثر مما يعول على العقل :

«ليس العقل قاضياً ينتهي بقوله كل زعم وادعاء . إذ إننا نميل بفطرتنا وشعورنا إلى رفض الكثير من النتائج المنطقية التي ينتهي إليها العقل . ليس هناك مبرراً لرفض ما يمليه علي شعوري وفطرتي لأستمع إلى إملاء العقل المنطقي وحده ، مع أن هذا العقل أحدث من ذلك الميل الغريزي عهداً وأضعف بناءً» .

وفي تعبير أكثر دقة يقول روسو :

«ترفض مشاعرنا النتائج المنطقية التي تريد منا أن نتجه في سلوكنا اتجاه الأرقام والأشكال الهندسية» .

وزوربا يكره الأرقام ولا يثق بها ، ولذلك فهو لا يكفّ حتى عندما يفكر ، عن أن يكون إنساناً . . كائناً من لحم ودم . . وهذا هو مكمن قوة أفكار زوربا . . إنها ليست وليدة الحبر ، بل الدم .

لكن زوربا أيضاً لا يكبح عقله . . كل ما هنالك أنه تعلم كيف يؤنسنه . . لقد أكسب التفكير مزايا الشعور من دون أن يفقده خصائصه ومن دون أن يبدل غاياته وطبيعة عمله .

زوربا لم يكن عدواً للعقل ولم يكبح عقله مرة واحدة ولم يسلم أبداً بكمال العالم على طريقة التقليديين . . إنه يوقن بأن العالم ناقص ، لكنه لا يطمح إلى إتمامه ، لأنه يعرف أن ذلك يقع خارج نطاق سلطته . . وإذا ما كان إدراكنا حقيقة أن العالم ناقص ، يسبب لنا الكدر أحياناً ، فإن العلاج الزوربي لهذه المسألة يكمن في الغرق في حب العالم وفي الانغماس في الحياة فلا نعود بعد ذلك قادرين على أن نتطلع إليهما من الخارج . في هذا المقطع يشبه زوربا الحياة بعشيقته الفرنسية مدام هورتنس أو (بوبولينا) كما كان يدعوها هو :

«يالهذه الدنيا من فاجرة . .إنها مثل الأم بوبولينا تماماً . . .لا . . لا تسخر أيها الرئيس . هذا صحيح . الدنيا مثل الأم بوبولينا تماماً ، عجوز هرمة . . . ومع هذا فلا يزال فيها ما يشوق . . فعندها من الألاعيب ما يجعلك تجن . . وعندما تقفل عينيك تتخيل نفسك بين يدي شابة في العشرين . .أقسم لك يا رفيقي . . فقط يجب أن تكون مستعداً ، حيث تكون الأنوار مطفأة» .

هذه الألاعيب هي التي تحصّن الحياة ضد الشيخوخة . . وإذا ما اعترتك أو اعترت الحياة بعض مظاهر الشيخوخة ، فما عليك إلا أن تطفئ الأنوار . . فهناك . . في قلب العتمة . . يوجد ملاذ آمن للذة الكاملة ، حيث تتوقف حاسة البصر عن تعكير متعتك برؤية ما لا يجب أن تراه .

لكن اللذة في شكلها التقليدي سرعان ما تنقضي . . وهنا يضطر الإنسان إلى البحث عن مجالات أخرى للذة . . مجالات بعيدة عن الأقنية التقليدية والمسارات الطبيعية للذة .

* * *

في الحرب من أجل الوطن وجد زوربا في صدر شبابه ، لذة لا تنقضي بسهولة . . وفي الحروب لذة لا يعرفها إلا من غرف من نبع اللذات وشرب منه بشراهة :

«إذا لمستني . . فاني أصرخ . فجسدي مغطى بالجروح والندبات . وتحدثني عن النساء! عندما أصبحت رجلاً حقاً ، تركت ملاحقة النساء . فأنا ألمسهن لبرهة ، ومن ثم أتخلى عنهن ، كالديوك تماماً» .

الحرب هي التي توصل الرجال إلى عوالم من النشوة لا تعادلها بحال من الأحوال ، نشوة القذف التي يصلون إليها فوق فراش الحب .

نشوة الوصول إلى التجسيد الكامل لكل قيم الرجولة هي جائزة المقاتل ، على شرط أن يكون هذا المقاتل مقداماً . . وزوربا بالتأكيد كان مقداماً بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

في المقطع التالي يصف صديقه الكاتب ، كيف لمس بشكل مباشر إقدام زوربا الذي لا نظير له :

«فتح زوربا قميصه وفك سرواله وقال بلهجة قاسية :

- قرّب القنديل؟

قرّبت القنديل من الجسد النحيل المسمرّ ، جروح عميقة ، وآثار رصاص وسيوف . لقد كان جسداً كأنه مصفاة معدنية .

- انظر الآن إلى ظهري .

وأدار ظهره .

- انظر إلى ظهري ، حتى ولا جرح بسيط . أتدرك ما أعنيه ، أبعد القنديل الآن» .

ليست إنشائية أبداً أحاسيس زوربا وهو يتحدث عن الحرب ، بينما تبقى كلمات نيتشه عن فضائل القتال ساذجة في شاعريتها وخطابية في مثاليتها .

يقول نيتشه مخاطباً الأخوة في السلاح عبر كتابه هكذا تكلم زرادشت :

«يقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب ، أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى تبرر كل غاية ، فقد أتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس ، وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا إقدامكم لا إشفاقكم» .

وفي موقع آخر من الفصل نفسه يقول :

«أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب ، وخير السلام ما قصرت مدته . إنني لا أشير عليكم بالسلم ، بل بالنصر . فليكن عملكم كفاحاً وليكن سلمكم نصراً» .

وفي موقع ثالث يقول :

«لتكن أنظاركم منطلقة تفتش عن عدو لكم ، وقد لاحت في لمعاتها بوادر البغضاء . عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حرباً تناضلون فيها من أجل أفكاركم حتى إذا سقطت هذه الأفكار في المعترك ، ينتصب إخلاصكم هاتفاً بالنصر» .

كم هي إنشائية عبارات نيتشه التي يمجد الحرب من خلالها .

الحرب لا يمكن وصفها بهذه الرومانسية إلا إذا كان من يتحدث عنها لم يسبق له أن خاض غمارها أو تجرع ويلاتها أو قاسى فظاعاتها . . ونيتشه لم يخض غمار الحرب يوماً ، إنه يتحدث عن الحرب فقط ، وهو يتحدث وهو جالس على كرسيه قبالة مكتبه ومن دون أن يعايش حتى مناخ حرب حقيقي .

وحتى عندما تطوع في الجيش وحاول أن يكتسب المهارات القتالية وحاول أن يقاتل في صفوف الجيش الألماني الذي كان مشتبكاً مع الجيش الفرنسي ، فإن ضعف بصره واعتلال صحته حالا دونه ودون تحقيق الهدف الذي طالما كان يصبو إليه ، فأنهى نيتشه فترة تطوعه من دون أن يكتسب من حياة الجندية التي طالما حلم بها ، شيئاً يذكر .

وأثناء الحرب تمّ تحويل نيتشه إلى قسم الخدمات الطبية بسبب مرضه وعدم قدرته على القتال . وهناك حيث عمل بالتمريض ، كان نيتشه يفقد القدرة على إسعاف الجرحى إذ لم يكن قادراً على السيطرة على مشاعره عند رؤية الدم .

لكن هـذه التجربة القصيرة التي أكسبت نيتشه الكثير من الأمراض التي انتقلت إليه عن طريق العدوى ، لم تكن كافية له ليدرك حقيقة الحرب .

ربما لو خاض نيتشه حرباً لغيّر كل آرائه ، وربما لو عايش حرباً حقيقية أو حرباً كبرى لجحد كل كتاباته التي مجد الحرب من خلالها ، لكن ما حدث هو أن نيتشه لم يعرف الحرب يوماً ولم يعايشها إلا من خلال قسم الخدمات الطبية في الجيش . . هذا بالإضافة إلى أنه لم يمارس القتل يوماً ولم يتعرض للويلات والفظائع والأهوال التي يتعرض لها المحاربون . . وهذا يعني ببساطة أن كل ما قاله نيتشه حول هذا الأمر لا يعدو أن يكون مجرد هلوسات خيال لا يمكن الأخذ بها لأنها تفتقد الشرعية والمصداقية المطلوبتين ، على اعتبار أنها كانت معزولة عن التجربة .

في رأيي أن نيتشه مجّد الحرب لأنه لم يعان من ويلاتها أولاً ، ولأنه كان يرى في تمجيد الحرب والحض عليها وإعلانها كغاية في حد ذاتها ، متنفساً لرغباته العدوانية ونزعاته الانتقامية ثانياً .

لم يكن نيتشه حسب رأيي صادقاً مع نفسه إذ مجّد الحرب في العبارات السابقة لأن دوافعه في القتل لم تكن سوى انعكاس لرغبته في الانتقام من المجتمع البشري الذي لفظه وفرض عليه عزلة قسرية خانقة .

يقول نيتشه في كتابه هكذا تكلم زرادشت :

«اهرب ، يا صديقي ، إلى عزلتك . لقد طالت إقامتك قرب الصعاليك والأدنياء . لاتقف حيث يصيبك انتقامهم الدساس وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك . لاترفع يدك عليهم فإن عددهم لا يحصى ، وما قدر عليك أن تكون صياداً للحشرات . إنهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة . ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الأعشاب من صروح شامخات . ما أنت بالصخرة الصلدة ولشد ما فعلت بك القطرات ، ولسوف يتوالى عليك ارتشافها فتصدعك وتحطمك تحطيماً» .

وفي موقع آخر من الكتاب يضيف نيتشه :

«إنهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤادهم إلا ما ترتكب من الخطأ . انك لكريم وعادل ، لذلك تقول في قلبك : إن هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة ، ولكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها : إن كل حياة عظيمة إنما هي حياة مجرمة . ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عندما تشملهم بعطفك ، فيبادلونك عطفك بالسيئات . إنك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون إلا عندما يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً . إن الناس يطمحون بالطبع إلى إلهاب كل عاطفة تبدو لهم ، فاحذر الصعاليك لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلب إحساسهم كرهاً وانتقاماً» .

ثم يختم نيتشه هذا المقطع بالعبارة التالية :

«إلى عزلتك ، يا صديقي ، إلى الأعالي حيث تهب رصينات الرياح ، فانك لم تخلق لتكون صياداً للديدان» .

إذا كان نيتشه قد انفصل عن المجتمع البشري إلى هذا الحد بعد أن كفر به ، فلماذا كان يطمح في تقويمه . .؟

وإذا كان نيتشه قد أشار على المتفوق بالعزلة والانقطاع عن المجتمع البشري ، فلماذا يعلن الحرب وسيلة لإنقاذ الضحايا كما أعلن عبر إحدى عباراته السابقة التي مجّد الحرب من خلالها؟ !

في موقع آخر من الكتاب يعود نيتشه إلى تكرار الفكرة نفسها التي تكرس أفضلية المتفوق وعدم تقبل المجتمع له :

«ما كره الناس أحداً كرههم للمحلّق فوق السحاب» .

وفي موقع ثالث وفي المعنى نفسه يقول نيتشه :

«ما الإنسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب» .

وفي موقع رابع يقول :

«ما الحياة إلا على القمم ، وها أنذا أتنشق الهواء الطلق على أعالي الجبل حيث لا أشتم روائح المجتمع الإنساني .

إن الهواء الحي يدغدغ معاطسي فتتسع لاستنشاق القوة والحياة» .

وفي الفصل الذي أطلق عليه (القراءة والكتابة) يقول نيتشه ممجداً من يخرج عن تعاليم المجتمع وثوابته ليلحق بنيتشه وتعاليمه :

«إن أقرب الطرق بين الجبال إنما هو الخط الممتد من ذروة إلى ذروة ، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل إذا لم تكن لك رجلا مارد . يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى ، وأن يكون لمن تُلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم» .

لقد قسا نيتشه على نفسه كثيراً وطالبها بما لا تطيق نفس بشرية الوفاء به . لقد حاول نيتشه أن يتناسى حقيقة أنه إنسان فاندفع يمجد العزلة .

لكن إذا كان نيتشه قد وجد حقاً كل ذلك الصفاء فوق ذرى الجبال ولم يعد يعكر معاطسه تنفس الهواء الذي يحمل روائح المجتمع الإنساني ، فلماذا كان يمجد الحرب ويسعى إلى تجنيد التابعين ليكونوا أدوات للقتل ، وما هو المبرر الذي يجده في الحرب للخروج من عزلته التي يقول إنها ملاذه؟

يقول نيتشه منتشياً بعزلته من خلال الباب الذي أطلق عليه (القراءة والكتابة) :

«من يحوم فوق أعالي الجبال يستهزئ بجميع مآسي الحياة ويستهزئ بمسارحها بل بالحياة نفسها .

تريدنا الحكمة شجعاناً لا نبالي بشيء ، تريدنا أشداء مستهزئين ، لأن الحكمة أنثى ، والأنثى لا تحب إلا الرجل المكافح الصلب» .

ومن خلال الباب الذي أطلق عليه (العودة) يقول نيتشه مواسياً نفسه :

«إن العزلة شيء والوحشة شيء آخر» .

إذا كان نيتشه حقاً قد وجد في العزلة سلامه المنشود ، فلماذا كان يا ترى لا ينقطع عن الشكاية؟ لماذا كان يتحدث بكثير من الألم عن المجتمع الذي خذله وألجأه إلى خيار العزلة؟ !

***

يبدو أن نيتشه لم يكن يدري أن تمجيده للحرب لم يكن سوى حيلة نفسية أخرى الغاية منها التنفيس عما يعصف به من مشاعر يرفض الوعي التصريح بها . لقد أعلن نيتشه أن الحرب غاية في حد ذاتها ، ولم يكن يدري أن الانتقام من المجتمع البشري الذي شعر نيتشه بأنه مارس بحقه النبذ والإقصاء ودفعه إلى خيار العزلة مضطراً ، هو الغاية الكامنة في نفسه .

لقد لفظ المجتمع البشري نيتشه بعد أن قام هذا الأخير بتعريته وبكشف عوراته وبإبراز مثالبه ونواقصه كما لم يفعل أحد من قبله ، سوى المتنبي شاعر العرب .

ورغم الإحساس بالتفوق الذي تنضح به عبارات نيتشه التي يمجد فيها العزلة ، إلا أن القارئ لا يمكن أن يتجاهل مشاعر المرارة والخذلان التي كانت تطغى على روح نيتشه بسبب معاناته في التكيف مع المجتمع البشري وقبل ذلك في تقبل هذا المجتمع .

لقد أرهقت العزلة نيتشه ، وأرهقت بالتحديد الجانب الإنساني من تكوينه الذي كان يحاول التملص منه بشتى السبل لصالح الجانب الإلهي الخلاق الكامن داخله .

لقد عانى نيتشه من العزلة ربما كما لم يعان أحد منها في التاريخ ، وهو ما يعترف به في كثير من المواضع عبر كتابه هكذا تكلم زرادشت .

يقول نيتشه في الفصل الذي أطلق عليه (العزلة) عن معاناته مع العزلة التي اختارها لأنه تجاوز بعبقريته ونبله الجنس البشري بمئات وربما آلاف السنين :

«لقد تبينت الطريق الذي يقودك إلى ذاتك ، أيها المنفرد ، وطريقك منبسط أمامك وأمام شياطينك السبعة فستصبح منذ الآن جاحداً لنفسك ، ساحراً مجنوناً مشككاً كافراً شريداً . فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك إذ لا يمكنك أن تتجدد ما لم تشتعل حتى تصبح رماداً» .

لكن هل رضي نيتشه بأن يحترق بلهبه حتى يصبح رماداً؟ وهل تحمَّل جهازه العصبي أن يتخلى عن شياطينه السبعة ، النفس والواقع والوعي المرتبط بالماضي والحاضر والحاجة إلى اليقين والانضمام إلى القطيع والاستقرار الذي يطلبه كل كائن حي؟ .

لقد نفذ نيتشه إلى أعماق النفس البشرية ربما كما لم يستطع غيره ، ولقد اندفع في تعرية مظاهر الضعف لكنه لم يبد حيالها أي تعاطف كما فعل زوربا ومن قبله الكاتب الروسي دوستويفسكي الذي كان الأبرع في تصوير مواطن الضعف داخل النفس البشرية .

لقد كان دوستويفسكي يعتقد بسبب قدرته على كشف مدى ضعف الكائن الإنساني ، أن هذا الكائن يستحق الشفقة أكثر من أي شعور آخر ، بينما اندفع نيتشه في رفض وكره واحتقار الكائن الإنساني بسبب قدرته على كشف مواطن الضعف هذه .

* * *

وفي غمرة تنقيبه عن مصادر البشاعة والنقص التي تدخل في صميم تكوين الجنس البشري ، اعتقد نيتشه أن استبدال الإنسان أمر ممكن فأشهر السيف على هذه الكائن الغارق في بؤسه وحماقاته ونقصه بدلاً من أن يطوقه بأذرعة المحبة والتفهم والرحمة .

يقول نيتشه مجسداً البشاعة الإنسانية وهي تتنكر في زي الفضيلة واللباقة والكياسة : «ما يطمع هؤلاء الناس إلا بأن يتقي بعضهم شر البعض الآخر فهم لذلك يلجؤون إلى التعامل بالحسنى . أما أنا فلا أرى إلا الخور والجبن في هذه الطريقة وإن كانوا يعرّفونها بالفضيلة فيما بينهم» .

وفي موقع آخر من الفصل نفسه يصف نيتشه النفاق والجبن واللؤم الذي يحكم العلاقات الإنسانية عموماً :

«وإذا صدف وتخاطب هؤلاء الناس بشيء من الخشونة فإنني لا أتميز في نبرات صوتهم إلا أثر التهاب الحلق ، فإن أقل لفحة تصيب هذه الأعناق تبح أصواتها ، وما أشد هؤلاء القوم حين يحتالون ويمكرون ، ففي أناملهم كل الرشاقة ولكن في قبضة يدهم شللاً وليس لأصابعهم أن تنطوي على راحتها» .

وهنا يصف نيتشه مظاهر الضعف والخوف والجبن التي تغلف العلاقات الإنسانية والاجتماعية باحتقار شديد :

«وما الفضيلة في عرفهم إلا ما يولد الضعة والتآلف ، وبهذا المبدأ توصلوا إلى جعل الذئب كلباً بل حتى إلى جعل الإنسان خير الدواجن الخاضعة لتسلط الإنسان» .

في العبارة الأخيرة يتحدث نيتشه عن الأنظمة الاجتماعية التي تقولب الفرد وتمنحه عضوية القطيع ، وهو محق إلى أبعد الحدود في ذلك . لقد تحوّل الفرد إلى ما يشبه أعضاء قطيع الخرفان ، فغرسوا فيه الضعف وجردوه من روح المبادرة والإقدام حتى أصبح «أكثر الكائنات تدجيناً وخضوعاً لتسلط الإنسان» كما ختم نيتشه عبارته السابقة .

ما أشد عزلة نيتشه الاضطرارية ، وما أقسى طموحه ، وما أعظم نبله ، وما أفظع رغبته في الانتقام من المجتمع البشري الذي فرض عليه مشاعر العداء لا مشاعر عدم الانتماء فقط .

يقول نيتشه عن دوافعه في اعتزال الناس من خلال الفصل الذي أطلق عليه (الوغد) :

«الحق أنني ارتقيت الذروة ، ولو لم أبلغها لما وجدت ينبوع الغبطة والسرور .

.لقد وجدته ، أيها الأخوة ، فرأيته يتدفق على الذروة غبطة ونشوة ، فاهتديت إلى المكان الذي يتاح فيه للإنسان أن يروي ظمأه من دون أن يعكر عليه الأوغاد الأدنياء» .

إن نيتشه تجاوز بفكره الزمن وتخطى بنبله وفروسيته أخلاق المجتمعات البشرية الغارقة في الاستغلال والنفاق والكذب . لكن هل وجد نيتشه حقاً ينبوع الغبطة والسرور إذ اعتمد العزلة خياراً وحلاً لإنهاء اشمئزازه من دناءة وغباء المجتمع البشري؟

نيتشه نفسه يعترف بأن العزلة خيار قاس وربما قسري ، وها هو يعبِّر في السطور التالية ومن خلال الفصل نفسه عن الألم والإحساس بالوحشة الذي فرضتهما عليه عزلته الناتجة عن إحباطه من الجنس البشري الذي لم يرتق إلى ذكائه ولا إلى نبله :

«لكم من معرض عن الحياة لم ينفره منها سوى الوغد الزنيم ، فعافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء ولهب وأثمار .

لكم من شارد لجأ إلى الصحراء متحملاً السعار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من أقذار» .

لكن نيتشه الأمين دائماً لما يعلنه ويكتبه ، فرض على نفسه خيار العزلة رغم الثمن الباهظ الذي دفعه ، ولم يخن أبداً ما دعا إليه وبشَّر به . لقد ذهب نيتشه ضحية لكلماته حتى جن ، تماماً كما قدم المتنبي حياته في سبيل بضع كلمات قالها .

* * *

انظر إلى نيتشه هنا وهو يعبر من خلال الفصل الذي أطلق عليه (القراءة والكتابة) عن كذب كثير من الكتَّاب وعن احتقاره لهم :

«إنني أستعرض جميع ما كتب ، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه . اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح ، وليس بالسهل أن يفهم الإنسان دماً غريباً» .

رومانسية نيتشه ، وقبلها إخلاصه وصدقه ونبله ، هم الذين فرضوا عليه العزلة والالتزام بهذا الخيار حتى آخر رمق .

لقد كان نيتشه ضحية رومانسيته وليس ذكاؤه فقط كما يعتقد البعض . ففي العبارات السابقة يوضح نيتشه أن ما ألجأه إلى العزلة هو تحقيره لؤم ونذالة المجتمع البشري ، وليس غباء هذا المجتمع .

وإذا كان نيتشه قد دعا إلى العزلة فإنه كان من النبل والصدق أن ألزم نفسه بتحمل قسوتها وفظاعاتها . إنه رجل لم ينفصل عن كتاباته لأنه كان أميناً مع نفسه قبل أن يكون أميناً مع أي أحد .

لكن نيتشه لم يحتمل العزلة ، ما دفعه إلى التصريح بالعداء للمجتمع البشري الذي كان سبباً في عزلته وتشرده .

لكن ما لم يعترف به نيتشه أبداً ، ربما لأنه لم يعرفه ، أن خذلان هذا المجتمع له قد ولَّد لديه رغبة جامحة في الانتقام منه .

يقول نيتشه في الفصل نفسه :

«ولكم جاء الأرض من مكتسح أشبه بالبرد المتساقط من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه في أشداق الأوغاد ليسد حناجرهم» .

وفي الباب الذي دعاه (الغبطة المتجلية) يرمز نيتشه إلى الحكمة أو الحقيقة بالسماء ويرمز بالغيوم إلى من يحاولون حجب الحقيقة وهم الأكثرية التي يتشكل منها نسيج المجتمعات البشرية :

«إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقية الايجابية الثابتة في كل شيء ، فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المعكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تعرف أن تعلن بإخلاص ولا أن تبارك بإخلاص وخير لي أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط في هاوية من أن أقف أمامك بأسماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات ، ولكم وددت لو أنني أسمر إرادتها على آفاتك بسهام البروق الذهبية ثم أنزل عليها الرعود تهوي قاصفة على مراجل أحشائها ، إنني أود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء الممتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك» .

هذا ما دفع بنيتشه لتمجيد الحرب وليس أي سبب آخر كما يبدو .

لم يكن نيتشه يسعى إلى القتل والحرب تعبيراً عن فضائل الذكورة ونزعاتها ، وإنما كان سيف نيتشه الذي أشهره في وجه المؤسستين الاجتماعية والدينية بالإضافة إلى المؤسسة الحاكمة ، مجرد وسيلة للانتقام لا أداة للهو وتحقيق الذات واللذة الذكوريتين كما يفعل الأشداء من الرجال .

***

زوربا كان واحداً من هؤلاء الرجال الأشداء الذين مارسوا في مرحلة ما من حياتهم لذة القتل .

لكن القتل وان كان لذة وغريزة ذكورية ، إلا أنه يظل دوماً بحاجة إلى ما يبرره حتى ينفّس البشر عنهما من دون أن يصطدموا بضمائرهم التي شكلتها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والدينية التي جعلت من القتل خطيئة كبرى .

مفهوم الوطن وقبله مفهوم القبيلة ، يمثلان أذكى التبريرات الأخلاقية التي تستند إليها المجتمعات الذكورية في شن الحروب وتشريع القتل . وزوربا آمن بمبرر الوطن وانساق وراء مقتضيات الإيمان به ، فأصبح في شبابه مقاتلاً جسوراً وقاتلاً ماهراً .

ولذة القتل ترضي الجانب النرجسي من الرجل ، حيث تعود الذكر على ألا يطيق رؤية من هو أقوى منه . . إنها لذة وغريزة ذكورية محضة .

في المقابل فإن المرأة لاتعرف لذة في الحياة سوى الحياة نفسها . في الأسطر التالية يروي زوربا لصديقه الكاتب هذه الواقعة :

«في أحد الأيام دخلت إلى إحدى القرى البلغارية ، فرآني مختارها . وكان يونانياً خائناً ، فاجراً ، فأفشى سري . فطوقوا المنزل الذي كنت أنزل فيه . فأسرعت نحو السطح ، وانحدرت من سطح لآخر ، وثباً كأني قطة ، أسير تحت ضوء القمر . إلا أنهم شاهدوا خيالي ، ولحقوا بي فوق السطوح ، وأخذوا يطلقون النار علي . عند ذلك هل تعرف ماذا فعلت؟ رميت بنفسي في ساحة

فوجدت سيدة بلغارية ، نائمة بقميصها ، فشاهدتني وفتحت فاها لتصرخ . إلا أنني مددت ذراعي وقلت لها بصوت خافت : «الرحمة . . اسكتي . ووضعت يدي على ثديها ، فخارت قواها ، وقالت بصوت يشبه الهمس :

- هيا ادخل . . ادخل حتى لا يشاهدونا . .

دخلت وشدت على يدي قائلة : هل أنت يوناني؟

- أجل يوناني ، فلا تخبري عني .

أحطت خصرها بذراعي . . فلم تتفوه بكلمة . ضاجعتها . . وكاد قلبي يثب من شدة متعتي» .

المرأة لم تستجب لغواية الوطن . . أما الرجل الذي كان يسكن زوربا فقد كان مؤمناً بالحيلة الأخلاقية التي تهدف لتشريع الحرب والتي تدعى : «وطن» . إنه كأي رجل تربى في كنف مجتمعات ذكورية أصيلة ، كان لا يستطيع مقاومة لذة القتل . لكن ما لم يكن يعرفه زوربا في ذلك الوقت ، هو أن هذه اللذة تظل ناقصة ، والأهم أنها تنتقص من وجودنا نفسه .

القتل يحوّلنا من بشر من لحم ودم ، إلى مجرد عبيد للأفكار . . سلطة الفكر لدى المحارب تتعالى على سلطة الحياة وتعطل الجزء الأكبر من إنسانيته . . وهذا ما يجعلنا نقع فريسة للندم إذا ما جربنا الوصول إلى هذه اللذة :

«قلت لنفسي : انظر . . انظر يا زوربا الخبيث . إنها امرأة . مخلوق إنساني . . من هي بلغارية ، يونانية ، أفريقية ، لا يوجد

فرق أيها الغبي . فهي مخلوق بشري ، لها فم وعينان ، وثديان ، وهي تحب . ألا تشفق عليها من القتل أيها اللعين؟ هذا ما كنت دائماً أردده طوال نومي معها ، ووجودي في كنف دفئها . .إلا أن الوطن لم يتركني بهدوء . وفي الصباح تنكرت بثياب قدمتها لي البلغارية التي كانت أرملة . . فقد أخرجت من صندوق الثياب ، بعض ملابس زوجها المرحوم وقدمتها لي ، متوسلة بأن أعود . وعدت في الليلة التالية . كنت وقتها وطنياً إلى أبعد الحدود . أي كنت وحشاً كاسراً . عدت حاملاً صفيحة بنزين وأضرمت النار في القرية . ولا شك بأنها قد احترقت هي أيضاً . . على فكرة لقد كانت تدعى لورملا» .

هكذا يخرج المحاربون من الدائرة الإنسانية الرحبة ، لينضموا إلى تصنيفات وانتماءات مصطنعة ضيقة . . لا فرق إن كانت هذه الانتماءات عقائدية أم عرقية ، فكل ما يشرع لك القتل لا يعدو أن يكون وهماً ، ومهما بدت الغايات مثالية ، فإن فعل القتل يظل فعلاً لا إنسانياً .

تابع في الأسطر التالية ما يقصه زوربا لصديقه الكاتب :

«منذ سنوات طويلة تطوعت في المقاومة . وفي إحدى الأيام ، وصلت لإحدى القرى البلغارية ، اختفيت في إسطبل لمنزل قسيس بلغاري . وكان هو أيضاً من رجال العصابات الأقوياء ، وحشاً كاسراً . فقد كان خلال الليل يخلع ثوبه الكهنوتي ويرتدي ثياب الرعاة ، ويتمنطق بسلاحه ويتوجه نحو القرى اليونانية .

ويعود قبل الفجر ، ملوثاً بالدم والوحل ، ليقوم بصلاته . وكان قبل مجيئي إليه قد قتل معلم مدرسة يوناني وهو نائم في فراشه .

دخلت إلى إسطبل القسيس ، وفي المساء دخل القسيس إلى إسطبله ليعلف بقرتيه ، فهاجمته وذبحته من الوريد إلى الوريد ، وبترت أذنه ووضعتها في جيبي . إذ إنني كنت وقتها أجمع الآذان البلغارية .

وبعد أيام قليلة ، نزلت إلى القرية نفسها ، متنكراً بثياب بائع جوال ، لأبتاع بعض المؤن والأحذية لزملائي . وقرب أحد المنازل ، شاهدت خمسة أولاد في ثياب الحداد . يمسكون أيدي بعضهم يتسولون ، ثلاث بنات وولدان . لم يكن أكبرهم قد تجاوز العاشرة ، وأصغرهم كان لايزال طفلاً رضيعاً . وكانت أخته الكبيرة تحمله على صدرها وتداعبه كي لا يبكي . لا أدري كيف سألتهم ، ولا شك بأنه كان وحياً ربانياً :

– أولاد من أنتم يا صغاري؟

– أولاد القسيس الذي قتل منذ أيام في الإسطبل .

– وبسرعة ملأت الدموع عيني . وراحت الأرض تدور بي ، فاتكأت على الجدار . فتوقف الدوران ، فدعوتهم :

– اقتربوا يا صغاري .

– وتناولت محفظة نقودي ، كانت منتفخة بالليرات التركية والذهبية . وركعت على ركبتي وأفرغتها على الأرض قائلاً :

– هيا . . خذوها . . خذوها كلها .

- وتركت لهم السلة المليئة بالأغراض .
- هذا أيضاً لكم .
- وعدت إلى نفسي وتمالكت أعصابي ، وتركت القرية ، ورحت أركض ولا أزال أركض حتى الآن» .

ليس الوطن سوى أكذوبة اخترعها تجار الحروب ليضفوا على تجارتهم البشعة طابع القداسة ، وليروضوا الضمير الإنساني لكي يتقبل فكرة القتل ويتحمس لها ويدعوها بطولة . والحقيقة أن القتل هو القتل ، لا فرق بين القتل من أجل حفنة من النقود ، أو القتل من أجل الفوز بامرأة ، أو القتل باسم الوطن . . القتل هو أن تمنح نفسك الحق في أن تنتزع حياة أخرى بكل آمالها وآلامها ومتعلقاتها . . القتل يعني أن تتجرد من إنسانيتك لتلتحق بركب الوحوش الضارية .

والقتل قبل هذا وذاك ، عبودية . . الحر لا يقتل . . وحده العبد الذي يقتل . . وأسوأ أنواع العبيد هي تلك التي تقتل إيماناً بفكرة ما . . أسوأ أنواع العبيد هي التي تضللها عبوديتها للأفكار ، فترتكب جريمة القتل وهي تحسب أنها تحسن صنعاً .

انظر إلى نيتشه هنا كيف يختم الفصل الذي عنونه بأخوتي في السلاح :

«ليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم ، ولتكن هذه الأماني عبارة عن أرفع فكرة في الحياة . وما أرفع فكرة لكم ، وأنا أستميحكم إبداءها لكم كآمر ، إلا هذه القاعدة : ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه» .

إنها العبودية في أبشع صورها يا نيتشه . . العبودية للفكرة المقدسة التي تحتكر الحقيقة وتدعي تقديم الخلاص النهائي مثلها مثل باقي الأيديولوجيات الأخرى ومن ضمنها أيديولوجيات المساواة التي كان نيتشه يحتقرها ، كالشيوعية مثلاً . .

إنها الأفكار المقدسة التي تحيلنا إلى كلاب للأفكار لا «كلاب للشهوة» كما قلت يا نيتشه عبر إحدى حكمك عن الفضيلة الكاذبة .

وإنها قبل هذا وذاك استجابة ساذجة لغواية تحقيق الكمال التي يحلم بها المثاليون والرومانسيون وغير المتصالحين مع الحياة ، من أمثال نيتشه .

في الفصل الذي أطلق عليه (ألف هدف وهدف) يقول نيتشه ساعياً إلى تحرير الإنسان من عبوديته من دون أن يدري أنه يشدّه إلى عبودية أخرى بديلة .

«لقد بلغت الأهداف الألف عدداً إذ بلغ عدد الشعوب ألفاً ، فنحن بحاجة إلى قيد واحد لألف عنق ، لأننا بحاجة إلى هدف واحد ، فالبشرية لم تعرف حتى اليوم لها هدفاً ، ولكن إذا كانت الإنسانية تسير ولا غاية لها ، أفليس ذلك لقصورها وضلالها؟» .

نعم نيتشه يطالب بقيد جديد لا بالحرية كما كان هو نفسه يعتقد . إنه يبحث عن فكرة تستحق العبادة ، لكن عبادة الأفكار لا تختلف باختلاف غاياتها . . عبادة الأفكار هي التي تشرع القتل والحرب باعتبار أن الفكرة المقدسة أهم من الإنسان نفسه .

لكن قبل هذا وذاك هل خاض نيتشه غمار الحرب ليبشر بها كوسيلة لتحقيق جنته الأرضية ، الإنسان المتفوق .

إنه يدعو إلى الحرب رغم أنه لم يخض غمارها . وهو يدعو للحرب لأنه لم يخض غمارها أيضاً .

* * *

في المقطع التالي يسخر زوربا من صديقه الكاتب الذي تراوده مثل هذه الغوايات الرومانسية والأوهام المثالية ، وكأنه يخاطب نيتشه أيضاً وليس صديقه الكاتب فحسب ، رغم أن زوربا لم يسمع باسم نيتشه طوال حياته :

«ماذا يمكنك أن تقول؟ فكما أرى أن سيادتك لم تشعر بالجوع مطلقاً ، ولم تقتل أبداً ، ولم تسرق ولم تزنِ . ماذا تعرف من هذا العالم؟ إن عقلك بريء ، وجلدك لم ير أشعة الشمس» .

* * *

والآن تأمل هذا الحوار الذي يختم به زوربا الواقعة الأخيرة التي كان يرويها لصديقه : «- وهكذا تحررت .

- تحررت من الوطن؟

- أجل من الوطن . تحررت من الوطن ومن الراهب ومن المال . . فأنا أغربل نفسي كلما تقدم بي السن . فأنا أنظف نفسي . . كيف أشرح لك ، فأنا أتحرر لأصبح إنساناً من جديد» .

ولكن مهلاً يا زوربـا . . هل تتحرر من الوطن كي تصبح إنساناً . .؟ هذا يعني أنك لا تستطيع أن تكون إنساناً من دون أن تكون حراً . لكن ما هي الحرية المنشودة . .؟ ما الذي يجعلنا أحراراً ويقتل فينا القابلية للعبودية . .؟

إنه الكفر بكل الأفكار التي تقولب البشر وتحبسهم داخل خانات متقابلة . . إنه الكفر بالأوهام التي تصنفهم إلى فرقاء متصارعين ، وتجعلهم يتناسون أن ما يجمعهم من الروابط حقيقي ويمكن أن نلمسه بأيدينا ، في حين أن ما يفرقهم لا يعدو أن يكون شبحاً صنعه خيال عقيم ، أو وهماً ابتكره عقل مريض ومغلق وملوّث :

«لقد مر عليّ وقت ، كنت أقول فيه ، هذا تركي ، يوناني ، بلغاري . اليوم كل ما أسأل عنه ، هل هو طيب أم رديء . . وأكثر من هذا ، لم يعد يهمني إن كان طيباً أو شريراً . فأنا أشفق عليهم جميعاً . فعندما أرى أي إنسان ، ولو نظرت إليه بعدم الاهتمام ، فإنني أشفق عليه . . هل تعرف ما أقول لنفسي؟ أقول : إن هذا التعيس يأكل ويشرب أيضاً . ويحب ويكره ويخاف . ويوماً ما سوف يهجر سلاحه ، وينام تحت التربة جثة هامدة ، وسيأكله الدود . يا للتعيس . فكلنا أخوة . . أخوة في لحم الدود» .

إذن فليذهب الوطن إلى الجحيم إذا كان سيأمرني بأن أصبح قاتلاً . . وليذهب الوطن إلى الجحيم إذا ما كان سيصيبني بالعمى ويجعلني عاجزاً عن رؤية صورتي وهي تنعكس على الجسد الذي أقوم بطعنه !

يقول زوربا لصديقه الكاتب في أحد حواراتهما :

«إنك تتحدث عن الوطن . ألا زلت تؤمن بهذا الهراء الذي تتكلم عنه على كيفك؟

يجب أن تصدقني أنا . فما دامت هناك أوطان فسيبقى الإنسان حيواناً . . حيواناً كاسراً ، أجل . . وربي لقد تحررت . . وهذا كل ما في الأمر» .

وها هو صديقه الكاتب يعلق عبر هذا المقطع على كلام زوربا الأخير :

«لم أرد عليه . فأنا أحسده على الحياة التي خبرها ، لحم ودم . يقاتل ويقتل ، ويقبّل . كل ما كنت أبذل جهدي لمعرفته من الورق والحبر . فجميع المشاكل التي كنت أحاول أن أحلّها في وحدتي وانزوائي فوق مقعدي ، حلها هذا الرجل ، عملياً في الهواء الطلق بسلاحه وسيفه» .

وفي رسالته التي بعث بها زوربا من مدينة كاندي إلى صديقه الكاتب يتحدث زوربا عن الوطن والحرب :

«كثير من الناس هم وطنيون ، من دون أن يكلفهم ذلك أي شيء أنا لست وطنياً ولن أكون مهما كلفني هذا . لو سمعت بأن اليونانيين احتلوا القسطنطينية ، هذا بالنسبة إلي تماماً ، كما لو أن الأتراك احتلوا أثينا» .

* * *

نيتشه يتفق مع زوربا في أن الوطن وهم ، لكنه كالعادة يختلف مع زوربا في الغايات التي تقوده إليها استنتاجاته ، أو ربما في الاستنتاجات التي تقوده إليها غاياته .

يقول نيتشه من خلال الفصل الذي أطلق عليه (ألف هدف وهدف) :

«لقد شاهد زرادشت كثيراً من البلدان وكثيراً من الشعوب ، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر ، وعرف أن لا قوة في العالم تفوق قوتهما .

تحقق أن ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة من دون أن يخضع النظم والسنن لتقديره ، وأن كل شعب يرى أن من واجبه ، إذا أراد الحياة ، أن يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب . وهكذا فما كان يراه أحدهما خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً .

لم أر جاراً تمكن من إدراك حقيقة جاره ، بل رأيت كلاً منهما يعجب لجنون الآخر وقسوته» .

الإيمان بوجود الخير والشر في صورتهما التقليدية هو الذي يدفع بالشعوب إلى عداء بعضها البعض ومن ثم إلى محاربة بعضها البعض .

إنه استنتاج ذكي جداً ورافض لأسباب الحروب ، لكن نيتشه لا يرفض الحرب بل إنه يحض عليها إذا كانت الغاية من ورائها خلق قيد جديد بدل آلاف القيود التي تفصل الشعوب عن بعضها البعض .

الحرب مبررة ومطلوبة بالنسبة إلى نيتشه إذا كان الهدف منها هو إيجاد المجتمع الجديد ، أو بمعنى آخر خلق السوبرمان .

***

لكن زوربا الذي علمته ويلات الحرب التي خاضها ، أن الحرب لا مبرر لها ، وأن احتلال بلاد الأعداء الذي يمثل أقصى درجات الانتصار ، أمر بشع وجريمة لا تغتفر . . جريمة ستجر إلى ارتكاب الفظائع بحق بشر مثلنا . والانتماء إلى البشر كل البشر ، هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن ننتمي إليه . . وإلا فإننا سنفقد إنسانيتنا ونتحول إلى وحوش كاسرة كما قال زوربا في العبارة التي سبقت عبارته الأخيرة .

«إننا أخوة في لحم الدود» . .

ألا يكفي ذلك إلى إسقاط كل الأوهام التي نعتقد بأنها تفصلنا عن بعضنا البعض وتشرّع لنا أن نعادي بعضنا البعض وتبرر لنا أن نقتل بعضنا البعض؟

إننا إخوة في لحم الدود . .

وهذا يكفي .

الفصل الخامس
زوربا مسيحياً

يقول زوربا في نهاية الفصل السابق : «نحن إخوة في لحم الدود» . .

الأخوة الإنسانية هي ثمرة هذا الوعي بوجود رابطة المصير المشترك بين كل أبناء البشر .

من الفناء يكتشف زوربا أسمى أنواع الروابط . . لا فرق بين خيّر وشرّير . . وعلى طريقة المسيح يفتح زوربا ذراعيه للجميع . . وعلى صدره الذي يتسع للكل ، يتعانق الأخيار والأشرار . . الأبرار والفجار . . الجميع يلتحمون هناك ، على صدر زوربا ، متناسين كل الأوهام التي كانت يوماً ما تفصلهم عن بعضهم البعض .

يقول المسيح في متّى :

«سمعتم أنه قيل : «أحبب قريبك وأبغض عدوك» . أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم ، لتصيروا بني أبيكم الذي في السماوات ، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار ، وينزل المطر على الأبرار والفجار . فإن أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم؟ أو ليس العشّارون يفعلون ذلك؟ وإن سلمتم على إخوانكم وحدهم ، فأي زيادة فعلتم .

أوليس الوثنيون يفعلون ذلك؟ فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم السماوي كامل» .

هذه الوحدة التي تذوب فيها الفوارق الفردية والمعايير الأخلاقية التقليدية والانتماءات العرقية والاختلافات الثقافية والخلافات العقائدية . . هذه الوحدة الوجودية التي يتناغم داخلها أبناء الوجود الذين تهطل عليهم المطر والشمس من دون تمييز . . هذه الوحدة كيف يمكن أن يصل إليها الفرد في ذاته . .؟ في داخله . .؟ كيف يمكن للفرد أن يحقق في أعماقه ما عجز الأنبياء عن تحقيقه على أرض الواقع . .؟

إنها وصفة زوربا الناجعة :

وحدة المصير المشترك .

لكن كيف يمكننا أن نرى هذه الحقيقة ونستشعرها؟

زوربا يقول إنه يتحرر ليصبح إنساناً . . والحرية أن تتخلص من لعنة الانتماء . . الحرية أن تفتح ذراعيك للهواء الطلق النقي . . الحرية أن تستطيع رؤية حقيقة المصير المشترك . .

والحرية أن تنقّي عينيك من شوائب الأفكار الجاهزة التي تحول بين بصرك وبين رؤية هذه الحقيقة .

الحرية أن تعود فرداً كما كنت . . الحرية هي أن تصبح واحداً . . وعندما تصبح واحداً فإنه يمكنك أن تكون الكل أيضاً .

ولكن . . هل كان زوربا مسيحياً . .؟ !

بمعنى من المعاني وبشكل من الأشكال ، يبدو أن زوربا كان كذلك .

زوربا يتحرر رقصاً . . وعندما يرقص فإنه ينسى الجميع . . الأشياء والأشخاص والوجود نفسه . . إنه يصبح فرداً . . لا على طريقة نيتشه الذي يمجد عزلة المنفرد ، بل على طريقة زوربا الذي يمجد توحد المتفرد ووحدانيته .

وعندما يتحرك جسد زوربا استجابة للموسيقى فإنه يكون قد انفصل عن الواقع كلياً ليلج إلى قلب الحقيقة . . ليس هناك شيء في الخارج . . الحقيقة كلها في الداخل . . وفي الداخل حيث يتطاول الوجود الزوربي إلى مرحلة التفرد ، يعثر زوربا على كل البشر في داخله . . وعندها تتحرك يداه وقدماه وكل أعضاء جسده احتفاءً بكل من يشاركونه الإقامة داخل زوربا . . احتفاءً بالناس والأشياء والعناصر . . احتفاءً بالوجود كله :

«هل من المعقول أن يتكلم أحد بواسطة الرقص؟ أما أنا فأقسم بأنها الطريقة الوحيدة التي تتفاهم بواسطتها الآلهة والشياطين» .

وفي هذا المعنى فإن نيتشه يتفق مع زوربا حيث يقول من خلال كتابه هكذا تكلم زرادشت وفي الفصل الذي عنونه بالقراءة والكتابة :

«إن الإله الذي يمكنني أن أؤمن به إنما هو الإله الذي يمكنه أن يرقص . عندما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ملؤه الجد والجلال ، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذي تتساوى جميع الحالات لديه» .

لكن عبارة زوربا عن الرقص تظل أكثر عمقاً ، والأهم أنها أكثر مصداقية إذ إن قائلها لم يكن يمارس التنظير ولكنه كان يتحدث عن خبرة مارسها بمنتهى البراعة والاقتدار .

* * *

عندما أمرنا المسيح بأن نحب الأشرار والفجار ، فإنه كان يعرف بأن ذلك لن يحدث قبل أن يجد الملائكة والشياطين لغة مشتركة يمكن لهم التفاهم بواسطتها . زوربا وجد هذه اللغة خارج كل الأبجديات . . لقد حلّ الخلاص بولادة المسيح ، وأصبح الفرح بديلاً للخوف ، والحب بديلاً للواجب ، والنعمة بديلاً للشريعة .

ولكي نكون جديرين بالنعمة ، يجب علينا أن نحتفي بها بكل عناصر وجودنا . . هكذا فقط يمكننا أن نتشبع بالنعمة . . وبدلاً من أن نصلي كلاماً ، يجب أن نصلي رقصاً . . يجب أن تشترك كل أعضاء الجسد في ترديد الخلاص المسيحي :

«على الأرض السلام ، وبالناس المسرة» .

هذه الصلاة لا يمكننا أن نتلو كلماتها من دون أن نستشعرها وهي تقرع بفرح حاملة إلينا البشارة . . تلك البشارة التي نتلقاها من الداخل فتستجيب لها أعضاؤنا بالفرح الذي يتجسد في الحركة لا في الكلام .

يقول المسيح في متّى موجهاً خطابه إلى جماعة المؤمنين :

«وإذا صليتم فلا تكرّروا الكلام عبثاً مثل الوثنيين ، فهم يظنّون أنهم إذا أكثروا الكلام يُستجاب لهم . فلا تشبّهوا بهم ، لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه» .

ربما كان هذا هو السبب في أن المسيح لم يسع إلى تسجيل تعاليمه ولم يمسك بالريشة يوماً ليدوّن وصاياه كما فعل سابقوه . . فالإيمان في نظره حالة من المعرفة الكلية والإشراق الداخلي الذي يعتمد على البصيرة ، وليس مجرد قواعد أو طقوس يمكن للعقل أن يستوعبها عندما يتم تسجيلها على الورق .

كيف يمكن التعبير عن المعرفة الكلية والإشراق الداخلي الذي خبره المسيح . .؟ هل تتسع أبجدية اللغة للتعبير عن ذلك . .؟ ما أفقر اللغة وأضيقها عندما يتعلق الأمر بالحقائق الكلية .

يقول زوربا عبر هذا الحوار مع صديقه الكاتب :

عندي فكرة أريد أن أطرحها عليك أيها الرئيس ، ولكن يجب أن لا تغضب . لماذا لا نجمع كل كتبك ونضرم فيها النار . وبعدها من يدري؟ فأنت رجل قوي ومقدام ، يمكن أن نخلق منك شيئاً .

وهنا يعلق الكاتب كازينتزاكس على مقولة زوربا الأخيرة :

ومن دون شعور شعرت بنفسي تصبح راضية « . . أجل . . أجل إنه على حق . ولكني لا أستطيع أن أحتمل ذلك» .

وتابع زوربا مرتبكاً :

- يوجد شيء يبدو لي بأني استطعت أن أدركه و . . .

- هيا تابع . . تكلم !

- لا أعلم تماماً ما هو ، ولكني أشعر بأني استطعت أن أدرك شيئاً ما . فلو حاولت أن أحدثك عنه لتهدم كل شيء . ويوماً ما عندما أكون مستعداً سأقوله لك رقصاً» .

* * *

زوربا كان يكره الأوراق والأقلام والكتابة ، وأحياناً الكلام . . لقد كان يكره كل ما يمتّ إلى عالم الأفكار الجامدة التي لم تخاطب الإنسان بقدر ما خاطبت كائناً افتراضياً يكاد وجوده ينحصر في عنصر واحد : العقل .

في المقطع التالي يدور هذا الحوار القصير بين زوربا وصديقه الكاتب بعد أن كاد زوربا يهلك رقصاً :

«- ما الذي أصابك يا زوربا لترقص هكذا؟

- ما الذي كنت أفعله أيها الرئيس؟ سروري كان يهزني ، وكان علي أن أجد مخرجاً . . وأي مخرج؟ كلمات . .؟ لا . . بف» .

وفي المقطع التالي يصف الصديق الكاتب المرة الأولى التي رأى فيها زوربا متلبساً بالرقص :

«قفز قفزة كبيرة واندفع خارج الكوخ وخلع حذاءه ومعطفه ، وصديريته وثنى أكمامه وسرواله إلى أعلى وراح يرقص . كان وجهه لا يزال ملوثاً بالفحم وعيناه البيضاويتان تلمعان .

واندفع كلياً ليرقص ملوحاً بيديه قافزاً ودائراً في الهواء ثم ساقطاً فوق ركبتيه . وقافزاً ثانية ثانياً ركبتيه . كان كما لو أنه مصنوعاً من المطاط . وفجأة قفز قفزة هائلة في الهواء ، كما لو أنه كان يريد أن يتحدى قوانين الطبيعة ويطير عالياً ، شعرت بأن المرء عندما يراه يحس أن في داخل ذلك الجسد العجوز توجد روح قوية تحاول أقصى جهدها لتطير به نحو الظلام . تلك الروح هزّت الجسد ومن

ثم ألقت به ثانية نحو الأرض ، لأنه لم يقو على البقاء طويلاً معلقاً بالهواء . وهزته ورفعته من جديد ، ولكن هذه المرة إلى أعلى قليلاً ، إلا أنها ومن دون رحمة أعادته ثانية إلى الأرض منهكاً ، بالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه .

قطب زوربا حاجبيه . وبدت على وجهه علامات القوة . ولم يعد يرسل تلك الصرخات . وبأسنان مشدودة كان يحاول أن يصل إلى المستحيل .

وصرخت به :

- زوربا هذا يكفي .

خشيت بأن جسده العجوز قد لا يحتمل مثل هذه القسوة ويتناثر آلاف القطع وتنتشر شظاياه في أرجاء الدنيا الأربع .

ولكن ما فائدة صراخي؟ كيف كان بإمكان زوربا أن يسمع صراخي الذي كان يطلق من الأرض؟ فقد أصبحت أعضاؤه كأعضاء الطيور» .

وهنا أيضاً يتفق نيتشه مع زوربا حيث يقول الأول :

«تعليمي هو هذا : من يريد أن يتعلم الطيران يوماً فعليه أن يتدرب أولاً على الوقوف فالركض فالقفز فالتسلق فالرقص ، وليس لأحد أن يطفر إلى الطيران طفراً» .

نعم . . لقد كان نيتشه يدرك أن الرقص هو الطريق إلى التحليق والطيران . . لكن هل يكفي الإدراك الذهني والتفاعل الوجداني وهل يغنيان عن ممارسة متعة التحليق التي يشعر بها الراقص أثناء ممارسة الرقص؟

قطعاً لم يكن نيتشه يحسن الرقص ، فصاحب الجسد العليل والنظر الضعيف لم يكن يستطيع حتى ولو أراد ، أن يرقص . لقد كان يمارس متعة التنظير من برجه العاجي ومن عزلته المفروضة عليه قسراً .

أما زوربا فقد كان يمارس الرقص تعبيراً عن الإشراق الداخلي الذي كان يشعر به ، واحتفاءً بالمعرفة الكلية التي توصل إليها . .

وحين يتوصل المرء إلى الإشراق الداخلي ويصل إلى المعرفة الكلية التي يسميها المتصوفة عرفاناً ، فإن اللغة تصبح عديمة القيمة والمعنى وهو ما يدفع بالمتصوفة إلى الامتناع عن الكلام وإلى ممارسة الرقص وكأنهم يستعيضون عن فقر اللغة المكتوبة والمقروءة والمنطوقة ، بلغة أخرى تشترك جميع أعضاء الجسد وخلاياه وأوردته في استخدامها .

لقد كان نيتشه بارعاً في استخدام اللغة وكأنه كان يعوض نقص براعته في الحياة ، لقد خلق عالماً بديلاً من الأوراق والحبر لأنه كان عاجزاً عن اقتحام العالم الذي نعيش داخله .

وهكذا فقد استطاع نيتشه بفضل عبقريته وبلاغته وشاعريته أن يشيّد مملكة عظيمة . . ولكنها مملكة من ورق .

وها هو نيتشه ينصب اللغة سيدة على الواقع ووسيلة للتواصل والتفاعل المفقودين مع جميع عناصر الحياة :

«إن العذوبة كلها كامنة في الكلمات والأصوات فما هي إلا جسور من الوهم ممدودة بين الكائنات المنفصلة إلى الأبد» .

وفي فقرة أخرى يقول نيتشه أيضاً :

«ما أعطيت الأسماء والأصوات إلا لتشديد عزم الإنسان ، وهل اللغة إلا جنون له لذته؟ أفما الإنسان يُرقص بيانه على كل شيء؟

ما ألذ الكلمات وما أحلى خداع الأصوات فإنها تُرقص حبنا على جميع ما في قوس قزح من الألوان» .

* * *

وفي الحوار التالي بين زوربا وصديقه الكاتب ، يقول الأول وكأنه يرد على نيتشه الذي لم يسمع به أبداً :

«لقد سبق وأخبرتك بهذا : إن لكل إنسان جنته الخاصة ، إن جنتك ستكون مكدسة بالكتب وزجاجات الحبر الكبيرة» .

وفي موقع آخر من الرواية يقول زوربا لصديقه الكاتب وكأنه يرد على نيتشه أيضاً . . ويرد على من يعطي الأفكار واللغة ، مكانة أعلى من المكانة التي يمنحها للحياة . . الحياة بكل جمالها وحماقاتها التي تجعل منها شيئاً أخاذاً :

«إنك بكل بساطة ، تريد أن تقيم ديراً ، وتضع فيه بدل الرهبان ، بعض الكتّاب ليأخذوا بتلطيخ الورق بالحبر طوال النهار . وبعد ذلك يتدلى من بين شفتيك ، كالقديسين ، شريط حريري مطبوع ، قل لي ألم أعرف ما الذي تنوي أن تفعله؟

أريد أن أطلب منك خدمة يا رئيس الدير ، أريدك أن تأخذني معك إلى هذا الدير كبواب ، كي أقوم بقطع الطريق ، وأسمح بعض الأحيان بمرور بعض الأشياء الممنوعة ، غانيات ، خمر ،

آلات موسيقية وبعض الخنازير الصغيرة المشوية . . وهذا حتى لا تضيع حياتك في الأشياء التافهة» .

أليس هذا رداً ساخراً على مغارة نيتشه التي أقامها في الجبل وجمع داخلها بعض الأشخاص المؤهلين ليكونوا نواة للإنسان المتفوق من خلال خاتمة كتاب «هكذا تكلم زرادشت»؟

***

زوربا لم يكن منظِّراً يتفرج على العالم من بعيد ويصدر أحكاماً وتعليقات وتأملات منفصلة عن أي خبرة مباشرة .

لقد كان زوربا كما وصفه صديقه الكاتب كازينتزاكس بالضبط ، فقد كان زوربا «عندما يرقص تصبح أعضاؤه كأعضاء الطيور» .

لم يكن زوربا بالتأكيد يقيم على الأرض أثناء ممارسته نشوة الرقص . لقد بدت الأرض كما لو أنها أضيق من أن تستوعب زوربا المحمّل بفرح الوجود والمقيم في قلب المحبة والمنتشي بفرح الغبطة .

لكن من قال إن التوحد مع نبض الوجود يوصلنا دوماً إلى الفرح . .؟ إنه يؤدي إلى الشفقة أحياناً . . والشفقة هي وليدة المحبة . . ذلك الحب الممتزج بالحزن . . إنه الحزن على مصير البشر وآلامهم ونهاياتهم المفجعة التي تجعل منهم «أخوة في لحم الدود» .

الشفقة جزء لا يتجزأ من مفهوم المحبة المسيحي ، وهو ما يتناقض مع فلسفة نيتشه التي ترى في الشفقة ضعفاً وفي المحبة

المسيحية تجذيراً لأخلاق العبودية التي تحول بين السوبرمان أو الإنسان الإله ، وبين الولادة التي كان يستعجلها ويستدعيها نيتشه بكل السبل .

يقول نيتشه مزدرياً الشفقة والرحمة في الفصل الذي أطلق عليه الرحماء :

«أحب أن أستر وجهي عند إشفاقي وأن أسارع إلى الهرب من دون أن أعرف . فتمثلوا بي أيها الصحاب» .

وفي موقع آخر من الفصل نفسه يقول نيتشه :

«لقد قمت بأعمال كثيرة في سبيل المتألمين ولكن كنت أرى أن الأفضل من هذا زيادة معرفتي في تمتعي بسروري . فإن الإنسان لم يسر إلا قليلاً مذ وجوده وما من خطيئة حقيقية إلا هذه الخطيئة .

إذا نحن تعلمنا كيف نزيد في مسرتنا فإننا نفقد معرفتنا بالإساءة إلى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام» .

ويضيف نيتشه في الفصل نفسه أيضاً :

«ذلك ما يدعوني إلى غسل يدي إذا أنا مددتها لمتألم ، بل وإلى تطهير روحي أيضاً ، لأنني أخجل لخجله وتؤلمني مشاهدتي لآلامه ولأنني جرحت معزة نفسه بلا رحمة عندما مددت له يدي .

إن عظيم الإحسان لا يولد الامتنان بل يدعو إلى إيقاد الحقد ، وإذا تغلب تافه الإحسان على النسيان فإنه يصبح دوداً ناهشاً» .

ويختتم نيتشه كلامه حول هذه النقطة :

«لا تقبلوا شيئاً من دون احتراس ، وحكّموا تمييزكم عندما تأخذون ، ذلك ما أشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس .

أما أنا فممن يبذلون العطاء وأحب أن أعطي الأصدقاء كصديق ، أما الأبعدون فليتقدموا من أنفسهم لاقتطاف الأثمار من دوحتي فليس في إقدامهم على الأخذ ما في قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم» .

* * *

عميق هو نيتشه بقدر ما هو جريء ، ومجدد بقدر ما هو أصيل . .

إنه يتتبع جذور الإنسان الأولى ودوافعه السلوكية الأصيلة التي تعلم الإنسان المتمدن كيف يخفيها تحت مظاهر التمدن والتحضر .

قاس هو نيتشه لكنه حقيقي ، وبقدر ما هو عبقري فقد كان مخلصاً إذ إنه لم يكن يهتم بردود أفعال الناس إذا ما هوى على رؤوسهم بقبضتيه التي التقطت من الحقائق ما لم يلتقطه غيره .

لقد كان نيتشه صارماً وغير مكترث بحجم الصدمات التي تحملها كلماته . إنه غير مكترث بنتائج ما يقوله ويعلنه من اكتشافات تشبه الومضات الخاطفة التي تلقي بالضوء على ثوب العتمة الذي يتدثر به الكون ليلاً كاشفة كل الخبايا في لحظات معدودة .

نعم . . تحقيق المسرة هو الذي يمكن أن يحول بيننا وبين الرغبة في الإساءة إلى غيرنا ، والأهم من ذلك أن عظيم الإحسان كثيراً ما يدعو إلى إيقاد الحقد وإلا فما الذي دفع بالبشر إلى اضطهاد كل الأفذاذ الذين جادوا على الإنسانية كلها بعظيم الإحسان؟ !

إن المجتمعات البشرية لا تتقبل من يتجاوز الحد المسموح به في حبها ، لأن جميع هؤلاء الأفذاذ من المحبين والمصلحين سمحوا لحبهم أن يكشف أكثر مما ينبغي من عورات من يحبون . . والإنسان بطبعه يعادي التعري ويحارب في سبيل الإبقاء على عوراته بعيداً عن عيون الناظرين .

في هذا المعنى يقول نيتشه :

«من لا يعرف المصانعة يدفع بالناس إلى الثورة عليه ، فاحذر العري ، يا هذا ، لأنك لست إلهاً ، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار» .

* * *

لكن نيتشه نسي أثناء انهماكه في كشف عورات الناس أن يتقبلهم . . ربما لأنه لم يفطن إلى قيمة المحبة التي لا تقع في فخ التمييز والتصنيف وانتظار المقابل .

لقد رفض نيتشه المحبة ومقتضياتها المتمثلة في الرحمة والشفقة . . لكن نيتشه نسي أن الإنسان لا يرتفع إلى مصاف الآلهة إذا لم يمتلئ قلبه بالمحبة وإذا لم تمتلئ المحبة به .

وعندما تمتلئ بالمحبة فإنه يمكنك الوصول إلى قلب الغبطة ، لكن ذلك لا يتحقق قبل أن تكون قد أقمت في قلب الحزن :

«هناك شيطان في داخلي يصرخ . وأنا أفعل ما يأمرني به ، وكلما أشعر بأني مغموم يصرخ بي قائلاً «ارقص . . ارقص» . وألبّي طلبه وهذا ما يعيد الهدوء إلى نفسي . عندما توفي ابني الصغير ديمتراكس نهضت كما فعلت اليوم واندفعت لأرقص . عندما رآني أصدقائي وأقربائي أمام الجسد المسجّى اندفعوا نحوي يريدون إيقافي . وراحوا يصرخون «لقد جن زوربا . . لقد جن زوربا» . لكن في الحقيقة لو لم أفرج عن نفسي في الرقص لكنت جننت حقاً . لأنه كان ولدي الأول وقد بلغ الثالثة من عمره . أتسمع ما أقول أيها الرئيس أم أنني أتكلم إلى مجرد جدار؟» .

المحبة الزوربية ولدت من رحم الحزن الذي استعصى على الكلمات وانقاد بكل سلاسة إلى الرقص .

لا شيء مثل الحزن يطهر القلوب ويعيد إليها نقاءها . . أما عندما ينضج الحزن ويستحيل إشفاقاً ، فإن الجانب الإلهي في الإنسان يطغى إلى حد إنكار الذات لحساب الكل الذي أصبح واحداً . . والواحد الذي أصبح كلاً في ذاته :

«إذا قدّر لنا الرحمن أو الشيطان ، أن ننجح في عملنا ، وهذا ما أظنه صعباً ، هل تعلم ما الذي سوف أفعله؟ سأفتح محلاً تجارياً ، وكالة زواج ، عندها ستهرع إلي النساء بكثرة ، المسكينات ، منهن العوانس ، البشعات ، والمقعدات ، وذوات العين الواحدة ،

والحدباوات ، سأرحب بهم في صالة استقبال صغيرة جدرانها مزينة بصور شبان وسيمي الطلعة وأقول لهن «اخترن يا سيداتي المحترمات . هيا اخترن وسأقوم أنا باللازم ليصبح أهلاً لكن» . وبعد ذلك سأحاول أن أجد أي شاب ، يشبهه قليلاً . وأجعله يرتدي الثياب التي في الصورة . وأنفحه مبلغاً من المال وأزوده بالمعلومات اللازمة : الشارع ، الرقم . اسأل عن هذه السيدة ، وعرّفها بنفسك . ولا تجعل نفسك تتقزز فأنا من يدفع . ضاجعها ، وغازلها بكلمات لم تسمعها أبداً ، تلك المخلوقة التعيسة ، واحلف لها بأنك ستتزوجها . اجعلها تشعر باللذة ، تلك التي خبرتها الخراف وحتى الحشرات ذوات الأرجل العشر . وإذا حضرت يوماً ما ، سيدة عجوز ، كبوبولينا ، ولم يقبل أي إنسان أن يواسيها ، فسأضطر لآخذ الأمر على مسؤوليتي . فأرسم علامة الصليب ، أنا مدير الوكالة وصاحبها . وقد يقول بعض الأغبياء «انظروا إلى هذا العجوز الخسيس . أليست له عينان يستطيع أن يرى بهما؟ ولا حتى أنف ليشم؟» . أجل يا جماعة الحيوانات لي أعين وأنف ، ولكن لي أيضاً قلب . واني أعطف عليها . وعندما يكون لدى الإنسان قلب ، يكون لديه كل العيون والأنوف التي يتمناها ، إلا أنه يرمي بها جميعاً في الهواء» .

إنه أسلوب زوربا في الفداء . .

وإذا كان المسيح قد صعد إلى الصليب ليفتدي البشر وليكفر عن خطاياهم ، فإن زوربا الذي يمتلك كل عيون وأنوف العالم

مستعد أن يرمي بها جميعاً في الهواء . . وهو مستعد أن يحول صُلبه إلى صليب ليفتدي بواسطته أتعس أنواع البشر ، وليكفر عن خطيئة الطبيعة في حقهم إذ أصابتهم بالبشاعة . . تلك الكارثة التي تجعل المصابين بها يطمحون في الحصول على ما تحصل عليه الخراف والحشرات ذات العشر أرجل .

فليتمجد اسمك يا زوربا . .

فليتمجد اسمك يا مسيح القلوب الكسيرة والشهوات الحبيسة وراء جدران البشاعة .

الفصل السادس
إذا كنت متمرداً حقاً فأغمض عينيك

إذا كانت الظاهرة النيتشوية تتميز عن الظواهر الفلسفية والفكرية المتمردة الأخرى بشيء ، فهو بهذه المقدرة المذهلة على الهدم .

جميع الظواهر الفلسفية المتمردة التي انطلقت في مشاريعها من افتراضية عدم وجود الله ، لم تستطع أن تقترب حتى ولو بمجرد الملامسة ، ولا أقول الهدم ، من النظام الأخلاقي الذي بشرت به الأديان جميعاً . على العكس من نيتشه الذي وظّف بلاغته وذكاءه وشاعريته ولغته التي تتسم بالحيوية وفكره الذي يتصف بالحدة ، في هدم الأنظمة الأخلاقية التي قامت عليها الأديان ، وخصوصاً المسيحية .

مشروع نيتشه الإلحادي كان المشروع الإلحادي الأول المتكامل ، ذلك أنه استطاع أن يتناول صلب الموضوع ونجح في النفاذ إلى أعماقه ، ولم يتوقف كما فعل الآخرون عند أطرافه وحدوده الخارجية . . وأعني بصلب الموضوع الجانب الأخلاقي من الظاهرة الدينية .

يقول نيتشه عن الخير :

«إن هذا هو خيري الذي أحب ، إن هذا ما يثير إعجابي ، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة . لا أريد هذه الأشياء تبعاً لإرادة إله ولا عملاً بوصية أو ضرورة بشرية ، فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود» .

وفي هذا فإن نيتشه لا يرفض الفضيلة التقليدية ولا يناصب مفهوم الخير الذي جاءت به الأديان العداء ، بقدر ما يناصب الدوافع التي تختفي وراء سلوك الأتباع والتي توجههم للتمسك بما هو خير .

وفي الباب الذي دعاه بألف هدف وهدف يقول نيتشه عن الخير والشر :

«لقد أقام الناس الخير والشر ، فابتدعوهما لأنفسهم ، وما اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من السماء .

لقد وضع الإنسان للأمور أقدارها ليحافظ على نفسه ، فهو الذي أوجد للأشياء معانيها الإنسانية .

ما التقدير إلا الإيجاد بعينه» .

اللغة هي ابنة الوعي ، والتقدير هو نتاج للوعي الإنساني الذي يوظف اللغة للاحتيال على معاني الأشياء ولإعطائها صوراً تنسجم مع ما يراه ويريده . إنه التقدير ، والتقدير لا يختلف عن الإيجاد في شيء . .

وفي الباب نفسه يضيف نيتشه عن الخير والشر أيضاً :

«ما خلق الخير والشر في كل عصر إلا المتهوسون المبدعون ، وما أضرم نارهما إلا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء» .

ويضيف نيتشه عن المسألة نفسها أيضاً :

«ليست الكلمات الموضوعة على الخير والشر سوى رموز فهي تشير إلى الأمور ولا تعبر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها إلا المجانين» .

في العبارة الأخيرة يعود نيتشه لمشكلة اللغة . فاللغة لا تحمل الحقيقة لأنها ليست سوى رموز وإشارات لا تحمل معنى في حد ذاتها ولا تمتلك الآلية التي تجعلها قادرة على تفسير نفسها . ولولا ما يعطيه الإنسان لهذه الرموز من معان ومفاهيم لما احتوت هذه الكلمات على كل تلك القداسة التي تجعلها في حل من النقد والمراجعة والمناقشة .

* * *

وعبر الباب الذي دعاه (الرحماء) يمجد نيتشه الشر لأنه صريح وشجاع وليس كالجبن والخداع واللؤم . إنه لا يمجد الشر في ذاته ، ولكنه يتقبله ولا يسعى إلى مقاومته بوصفه جزءاً أصيلاً من تكوين الكائن المسمى بالإنسان . . وهو أصيل في بدائيته وليس جديداً كما هي الحال مع اللؤم والدناءة .

الشر بهذا المعنى جزء من الفطرة البشرية وليس جزءاً مكتسباً وحديثاً كالدناءة والاحتيال . . والصفات الأخيرة هي التي اكتسبها الإنسان بسبب الانتقال إلى مرحلة المجتمع البشري بعد أن فارق

الغاب والأحراش والقفار . . أي بعد أن فارق إنسانيته وتحول إلى مجرد عضو في قطيع كبير .

لذلك كله يمجد نيتشه الشر في الأسطر التالية مقابل الدناءة :

«إن لشر الأعمال أكلاناً والتهاباً وطفحاً كالجروح ، فهو حر وصريح لأنه يعلن نفسه داءً كما تعلن القروح ، في حين أن الفكرة الدنيئة تختفي كنوامي الفطر وتظل منتشرة حتى تودي بالجسم كله ، ومع هذا فاني أسر في أذن من تملّكه الوسواس الخناس : إن من الخير أن تدع الوسواس يتعاظم فيك لأن أمامك أنت أيضاً سبيلاً يوصلك إلى الاعتلاء» .

* * *

الفضيلة هي حجر الزاوية الذي قامت عليه كل المشروعات الدينية ، ومهما كان اللاهوت مهماً من الناحية النظرية ، فإن استمرار المشروع الديني يعود في الأساس إلى تشبع الضمير البشري بمفهوم الفضيلة الذي جاءت به الأديان .

الفضيلة معيار أخلاقي ، ولأن نيتشه كان يرى في الفضائل المسيحية علامة انحطاط جذّرت لما كان يطلق عليه مسمى : (أخلاق العبيد) ، فقد سارع الرجل إلى نقض الفضيلة المألوفة ليحل محلها فضيلة أخرى بديلة . . وبدلاً من معايير الخير التي استلهمها المسيح في تعريفه للفضائل ، اتخذ نيتشه من القوة والذكاء والشجاعة والجرأة والصراحة مع النفس ، معايير أخرى بديلة لتعريف الفضيلة .

يقول نيتشه عن الفضيلة :

«لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير بأجنحتها ضاربة أسوار الأبدية ، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل» .

وفي الباب الذي دعاه بالعيوب الثلاثة يمجد نيتشه الشهوة ويعتبرها فضيلة :

«الشهوة للقلوب الحرة عاطفة بريئة حرة ، فهي سعادة الجنة الأرضية وعرفان المستقبل ، جميل الحاضر .

الشهوة سم حلو المذاق لكل من عراه الذبول غير أنها شراب القوة وخمرة للأسود يكرعونها بثمل الخاشعين» .

***

لكن نيتشه وفي غمرة انتقاده اللاذع للفضيلة التقليدية وإشادته بالفضائل التي كانت سائدة لدى الإغريق والرومان ، كان يعلن عن بحثه عن فضيلة جديدة . فضيلة لاتقوم على المعايير التقليدية التي استلهمتها الفضيلة الدينية .

يقول نيتشه من خلال الباب الذي دعاه (الوصايا القديمة والجديدة) :

«رأيت الناس يعتقدون أن كل بحث عن الفضيلة قد انقضى زمانه ، وبالرغم من هذه العقيدة كان كل منهم يأتي على ذكر الخير وهو متجه إلى سريره طلباً للنوم الهنيء» .

إنها ليست فضيلة بقدر ما هي مخدر . . وفي هذا فإن نيتشه لم يجانب الصواب هذه المرة أيضاً .

***

أزمة نيتشه لم تكن مع مفهوم الفضيلة التقليدية نفسه بقدر ما كانت في الدوافع التي حفزت البشر إلى التعلق بهذه الفضيلة .

في السطور التالية يناقش نيتشه الدوافع الانتهازية التي تحفز الناس على التمسك بالفضيلة من خلال الباب الذي دعاه بالفضيلة والفضلاء :

«إن ما يؤلمني هو أن العقاب والثواب قد دُسا دساً في غاية كل أمر ، بل حُشرا حشراً في أعماق نفوسكم ، أيها الفضلاء . ولكن لكلمتي أن تلج هذه النفوس ذاهبة فيها كقرن الوعل وكالسكة تشق الأرض لتحرثها . فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها أمام النور ، لأن الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس . ذلك لأن حقيقة ذاتكم إنما هي أطهر من أن تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافأة والمقابلة بالمثل . إنكم تحبون فضيلتكم كما تحب الأم طفلها ، وهل سمعتم أن أماً طلبت مكافأة على عطف الأمومة فيها؟» .

لقد وضع نيتشه هنا يده على مكمن الجرح ومصدر الألم وموقع الخلل ، فكيف يمكننا أن نطلق على الانتهازية التي تبحث عن المقابل وتمنح في انتظار أن تأخذ ، فضيلة؟ !

وفي الأسطر التالية ومن خلال الباب الذي دعاه (أهل العاهات) يقول نيتشه عن الضمير أو المعيار الأخلاقي الذي يلتزم به المتطرفون دينياً :

«والحق أن إرادتنا مصابة بالجنون وقد نزلت لعنة على البشرية منذ أن تعلم الجنون أن يتفكر . إن خير ما طرأ على الإنسان حتى اليوم إنما هو فكرة الانتقام ، وهكذا سيبقى العقاب ملازماً للألم في كل زمان ومكان . وما هي فكرة الانتقام؟ ما كلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بها التعبير عن الضمير» .

وفي الأسطر التالية وعبر الباب نفسه يعطي نيتشه فكرته توضيحاً أكبر :

«ليس من حادث واحد يمكننا أن نزيله من الوجود . فهل للعقاب أن يمحو الحادثات؟ وهل من خلود لغير الأعمال في وجود لا ينفك يحول العمل عقاباً والعقاب عملاً؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة ما لم تتوسل الإرادة إلى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك إرادة منفية» .

نعم لقد تحول العقاب إلى عمل وتحول العمل إلى عقاب . والأدهى من ذلك أن العقاب لا يمكن أن يمحو الحادثات التي يتخذ منها المشرعون مبررات لإيقاع العذاب والأذى بالناس باسم الفضيلة !

يجب أن تكون إرادتنا منفية عن الإرادة الجماعية التي تستلهم سلوكها من مبادئ الخير والشر التقليديتين .

يجب أن نعود فرادى كما كنا دائماً حتى نحتفظ على حرية إرادتنا في وجه المؤسسات التي حولت العمل إلى عقاب والعقاب إلى عمل .

* * *

حسب نيتشه فإن الفضيلة مثلها مثل الأمومة لا تطلب مكافأة ولا تنتظر ثواباً ولا تعمل على تحقيق مصلحة ذاتية .

انظر إلى نيتشه وهو يقول عبر الباب الذي أطلق عليه (الفضيلة والفضلاء) عن انتهازية الفضيلة التقليدية :

«إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء ، أيها الفضلاء ، طامحين إلى امتلاك أماكن في السماء بدلاً من أماكن في الأرض ، وإلى الظفر بالأبدية بدلاً من الدهر الزائل» .

ويضيف في المعنى نفسه مخاطباً الفضلاء :

«إنكم لتحقدون علي لأنني أعلم الناس أن ليس هناك لا حسيب ولا مثيب ، والحق أنني أمتنع عن القول بالثواب بل أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أنْ ليس للفضيلة ما تجزي به عن نفسها جميل الجزاء» .

وفي الباب نفسه يقول نيتشه أيضاً :

«ما أتى زرادشت إلا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الأقوال القديمة التي علمكم إياها المخادعون والمجانين ، فينفركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب والانتقام» .

إنها الرومانسية وهي تلتحم مع النبل . فالفضيلة الناتجة عن حب الانتقام وإيقاع العقاب والطامحة في المكافأة لا يمكن أن تكون فضيلة في رأي نيتشه .

وفي هذا فإن نيتشه يلتقي مع بوذا الحكيم حيث يقول الأخير مشدداً على إعادة النظر في المعايير التي نقيس بها الخير والشر :

«الذين يتخيلون الشر حيث هو منعدم ولا يرون الشر حيثما هو فعلاً ، بتبنيهم نظريات خاطئة ، يصيرون إلى حالات من البلاء» .

والفضيلة التي تنتظر الجزاء لا يمكن أن تكون خيراً حتى ولو رأى الناس فيها الخير . هذا هو ما يدعو إليه بوذا الحكيم . . إعادة النظر في القيم التي جعل منها البشر مرجعية أخلاقية .

وفي هذا فإن نيتشه يلتقي مع الفلسفة الصوفية قبل أن يصادرها أبو حامد الغزالي بمحاولته منهجتها وتقنينها . لقد عمد الغزالي إلى وضع خطوط عامة وقوانين صارمة للتصوف ، متجاهلاً أن الصوفية لم تستمد أهميتها إلا من كونها حركة تجديد وتحرر اعتمدت معايير مختلفة عن المعايير السائدة ، حيث منحت الفرد الثقة وأعادت إليه الاعتبار ولم تجعله أسيراً في علاقته مع الله ، للمناهج الجاهزة والطقوس المحفوظة ، بل أطلقت له الحرية في التفتيش عن السبل الذاتية التي توصله إلى الله .

يقول الحلاج في واحد من أجرأ أبياته التي وصف من خلالها المفاهيم التقليدية والمغلقة للدين ، بالكفر :

كفرت بدين الله والكفر واجب
علـيّ وعند المسلمين قبيح

ويعود الحلاج في قصيدة أخرى ليوضح أفكاره عن العابدين التقليديين الذين يحاولون تطبيق النصوص من دون النفاذ إلى جوهرها ومن دون التأمل في معانيها :

وأي الأرض تخلو منك حتى
تعالوا يطلبونك في السماء
تراهم ينظرون إليك جهراً
وهم لا يبصرون من العماء

***

إن الفضيلة الحقيقية هي التي تتجرد من الغايات والدوافع الشريرة والنزعات السلبية كالانتقام .

في السطور التالية يتحدث نيتشه عن الفضيلة التي يتوق إليها :

«إنما تنشأ فضيلتكم عندما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم ، فتطمح إرادة الرجولة فيكم إلى السيادة على كل شيء .

إنما تنشأ فضيلتكم عندما تحتقرون النعم والفراش الوثير وعندما لا تجدون راحة بعيداً عن مواطن الراحة» .

وفي السطور التالية يتحدث نيتشه في الصفحات الأولى من كتابه (هكذا تكلم زرادشت) عن الفضيلة من وجهة نظره :

«لتكن فضيلتكم تعبيراً عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هذه ، فلا تحسبوا أنها جلد ورداء» .

نعم . . إذا لم تمتزج الفضيلة بالذات وإذا لم يصبح السلوك مطابقاً للشعور لا مغالباً له ، فليس هناك فضيلة ، بل رذيلة جبانة .

على هذا الأساس فقد اعتبر نيتشه المشروعين الوثنيين الإغريقي والروماني ، هما الأرقى طوال مراحل التاريخ البشري ، بينما اعتبر بروز الظاهرة المسيحية علامة ضعف وانحطاط باعتبارها تهدف إلى قولبة البشر وتحويلهم إلى قطيع . . وهو ما سيؤدي إلى انعدام وجود الفرص أمام الأذكياء والأقوياء والموهوبين .

يقول نيتشه ممجداً فضائل الأرستقراطيتين الإغريقية والرومانية :

«إذا أعطي لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة ، فلن تفسد الكتابة مع مرور الزمن فحسب ، بل إن الفكر نفسه سيفسد أيضاً .

لقد كان الفكر فيما مضى إلهاً فتحول إلى رجل ، وها هو ذا الآن كتلة من الغوغاء . إن من يكتب سوراً بدمه لا يريد أن تتلى السور تلاوة ، بل يريد أن تستظهرها القلوب» .

مهما كانت كلمات نيتشه السابقة قاسية إلا أنها لا تخلو من الحقيقة . فالحكومات الحديثة التي وُلد في ظلها ما يسمى بالرأي العام ، هي حكومات منافقة إلى أبعد الحدود . فالرأي العامّ دائماً ما يتصف بالجهل والسطحية ، وعندما يسود الرأي العام ويصبح هدف الحكومات أن ترضي هواه وذوقه ، فإن الفكر لا بد وأن يتراجع ويفقد بريقه إذ يصبح الخداع سيد الموقف .

يقول نيتشه عن ذلك من خلال الباب الذي سمّاه (الانحطاط والخمول) :

«وأخبث ما رأيت بين هؤلاء الناس تظاهر حاكمهم بفضيلة محكومهم ، فلا يزال أولو الأمر فيهم يترنمون بتصريف مصدر الخدمة .

خدم ، خدما ، خدموا ، نحن خدم . . وويل للسيد الأول بينهم إذا لم يقل إنه أول الخادمين» .

***

بالإضافة إلى ذلك فإن نيتشه كان يرى في الفضائل الوثنية التي جسدها الإغريق والرومان ، انسجاماً مع الذات لا محاولة للاحتيال عليها .

انظر هنا إلى نيتشه وهو يبشر بفضيلة القوة التي كانت بمثابة الحجر الأساس الذي أقام عليه المشروعان الوثنيان الإغريقي والروماني بناءهما الأخلاقي :

«لا خير يضاهي الشجاعة وغاية الحرب الحسنى تبرر كل واسطة» .

وفي موقع آخر يوجه نيتشه خطابه إلى الملوك والكنائس قائلاً :

«وها أنذا الآن أسدي النصح للملوك والكنائس ولكل من أضعفته الفضيلة إذ أهرمه الزمان فأقول : دع القوة تسقطك لتعود إلى الحياة فترجع الفضيلة إليك» .

لقد أعلن نيتشه القوة بوصفها فضيلة الفضائل في حين كانت الفضيلة المسيحية في رأي نيتشه ترسخ معايير الضعف

بوصفها تجسيداً للخير لأنها تتناسب مع مصالح الأكثرية الجاهلة الضعيفة ، وتدافع عنها وتحارب من أجل بقائها على حساب الأقوياء والمتفوقين . . وما نزوع المسيحية وباقي الأديان نحو المساواة ، إلا تجسيداً حياً لهذه الرغبة في محاصرة المتفوقين لحساب الضعفاء والجهلة ، حسب رأي نيتشه .

يقول نيتشه عبر كتابه هكذا تكلم زرادشت ومن خلال الباب الذي دعاه بالعناكب عن هذه القضية :

«أيها العناكب المضللون المبشرون بالمساواة ، فما أنتم في نظري إلا مستودعاً لعواطف الانتقام» .

ويضيف نيتشه :

«لقد وجب علي أن أنقذ الإنسان من عاطفة الانتقام ، وهذا الواجب هو المعبر المؤدي إلى أشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الكاسحات . ولكن إرادة العناكب لا تتجه إلى هذه الغاية ، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين : لا عدل إلا في عواصف انتقامنا تهب على العالم لتلقي العار على كل من ليس منا» .

ويبين نيتشه في العبارة التالية الدوافع العدوانية التي تكمن وراء الدعوة إلى المساواة حسب رأيه :

«أيا كهان المساواة ! لقد تسلط عليكم جنون عجزكم ، فهتفتم بهذه المساواة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل» .

ويستطرد نيتشه في المعنى نفسه قائلاً :

«ما تسمع لهؤلاء الناس أنيناً يخلو من نبرات الانتقام ، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوي على أذية ، فهم يرون منتهى السعادة في إقامة أنفسهم قضاة على العالمين . فاصغوا إلى نصيحتي أيها الأصدقاء : احذروا من تغلبت عليهم غريزة إيقاع العقاب ، لأنهم متحدرون من أفسد الأنواع وعلى وجوههم سيماء الجلادين» .

لقد أصاب تمرد نيتشه هذه المرة أيضاً ، فليس النزوع نحو تحقيق العدالة عند الغالبية العظمى من الناس إلا وسيلة للتعبير عن عاطفتي الانتقام والغضب ، ولمن لا يصدق ذلك فعليه أن يراجع تاريخ الثورات التي نجحت في الانقضاض على الحكم كيف تلطخت يد قادتها ومقاتليها بالدماء وكيف تفاعلت معها الشعوب التي كانت تختزن كل تلك الرغبة المدمرة في الانتقام وهي تحسب أنها تتطلع إلى تحقيق العدالة .

في السطور التالية يتحدث نيتشه عن الفضيلة التي يؤمن بها المتطرفين دينياً من خلال الباب الذي أطلق عليه (الفضيلة والفضلاء) :

«هناك المغترون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبل من الدعوى فتراهم يجدفون على كل شيء إلى أن يغرقوا العالم بظلمهم ، وما تخرج كلمة الفضيلة من أفواه هؤلاء الناس إلا وتحسب أنهم يتجشؤونها ، وإذا قال أحدهم : لقد عدلت ، فكأنه يقول : انتقمت .

هـؤلاء من يريدون أن يفقؤوا أعين أعدائهم بفضيلتهم وما يطلبون من الاعتلاء إلا إسقاط سائر الناس» .

هؤلاء هم الذين لا يريدون في قرارة أنفسهم إصلاح العالم أو الارتقاء بالبشر ، لأن ذلك سيفقدهم المبرر لإيقاع العقاب بالآخرين . إنهم لا يحققون ذاتهم إذا لم يحسوا بأفضليتهم . . وهذا هو سر دناءتهم .

أما عن الدوافع الحقيقية التي تتحكم في سلوك أتباع رجال الدين الذين يطيعون قادتهم الروحيين ، أو بالأصح سادتهم ، في كل صغيرة وكبيرة من دون أي إعمال لفكرهم الذاتي ، فيقول عنها نيتشه من خلال الباب الذي سمّاه (الحكماء الكبار) :

«ما أنا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا أنهم خدم مشدودون إلى عجلة وما يرفع من ذلهم توهج الذهب على العجلة التي يجرونها .

ولطالما أخلص هؤلاء الناس في خدمتهم فاستحقوا الشكر لأن الحكمة تقضي بأن يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته .

لقد وجب أن يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لأنك بها تعلو أنت» .

إنه الطموح إلى السلطة والارتقاء والتميز . ولأن هـؤلاء من الضعف والضعة بحيث لا يستطيعون أن يعتلوا بأنفسهم ، فإنهم يطلبون التفوق على الآخرين عن طريق سادتهم الذين يطيعونهم طاعة عمياء .

وفي هذا فإن نيتشه يتوافق مرة أخرى مع الحكيم بوذا الذي لا يعول سوى على إرادة الفرد وحكمته لاكتشاف سبل الخلاص :

«ما من طريق في السماء . ما من قديس خارجاً . الجنس البشري يتمتع بالدنيوية . براء من الدنيوية هم المستنيرون» .

* * *

لقد اكتشف نيتشه كما لم يكتشف غيره مدى تعطش التابعين والمطيعين لرجال المؤسسة الدينية ، إلى تحقيق السيطرة .

يقول نيتشه من خلال الباب الذي أطلق عليه (الانتصار على الذات) :

«وتساءلت عن علة الأمور وعن القوة التي ترغم الحي على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم . ولعلني توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم ، فاصغوا إلى قولي أيها الحكماء .

لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً لتتحكم فيمن هو أضعف منها . وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها» .

وفي هذا فإن الفيلسوف البريطاني برتراند راسل رائد المدرسة التحليلية وأحد أهم فلاسفة القرن العشرين ، يوافق نيتشه حول ما أثاره عن إرادة القوة التي تقف وراء دوافع القادة والأتباع .

يقول راسل في كتابه (السلطان) :

«لحافز السلطان مظهران ، أحدهما صريح واضح ، ويكون عند القادة ، والآخر خفي ضمني ويكون عند الأتباع . وعندما يجري الناس وراء زعيم لهم ، فإنهم إنما يفعلون ذلك سعياً للحصول على السلطان ، عن طريق الجماعة التي يتولى قيادها . وهم يشعرون والحالة هذه أن كل ما يحققه من انتصارات ، هو انتصار لهم ، ولا يشعر معظم الناس بوجود الكفاية لديهم التي تمكنهم من قيادة جماعتهم إلى النصر ، وهم لذلك يبحثون عن القائد ، الذي يبدو محبوّاً بالشجاعة والحكمة الضروريتين لتحقيق التفوق والزعامة . وكثيراً ما يبدو هذا الحافز في المضمار الديني أيضاً» .

لقد قام نيتشه كما لم يقم غيره بتعرية فضيلة التقليديين وخيرهم وشرهم بالكشف عن دوافعهم الحقيقية غير المعلنة ربما حتى لأنفسهم . وفي الأسطر السابقة تجسيد لمدى براعة هذه الأفكار وقدرتها على التأثير في الفلاسفة اللاحقين من أمثال البريطاني برتراند راسل .

إنه نيتشه . . الذي يجمع إلى النظر الثاقب كل تلك الجرأة والقدرة على الهدم والنزوع إلى التمرد .

* * *

هذا النزوع النيتشوي نحو التمرد ، لم أجد ما يمكن أن يضاهيه من ناحية العمق ، سوى نزوع زوربا نحو التمرد والانفلات الذي طال أبرز ما في الظاهرة الدينية .

من خلال الحوار التالي بينه وبين صديقه الكاتب ، يضع زوربا معايير في غاية الجرأة والانفلات للفضيلة :

«- إذا نامت المرأة وحيدة فهذا ذنبنا نحن الرجال ، ففي يوم الحساب سنحاسب على هذا . فالرب يغفر جميع الذنوب ، فهو يحمل بيده الإسفنجة ، لكن هذا الذنب لن يغفره على الإطلاق . يا لتعاسة الرجل الذي يستطيع أن يعاشر امرأة ويرفض أو لا يفعل . ويا لتعاسة المرأة التي تستطيع أن تضاجع رجلاً ولا تفعل . لا بد وأنك تتذكر كلام الخادمة التركية التي ويختني عندما رفضت مضاجعة سيدتها لأنني كنت خائفاً فالأتراك كانوا يقتلون اليونانيين تلك الأيام .

وصمت لحظة ثم سأل :

- هل تعتقد بأن الإنسان عندما يموت يعود إلى الأرض بشكل آخر؟

- كلا . . كلا لا أظن ذلك .

- وأنا لا أعتقد ذلك أيضاً ، ولكن لو كان هذا ممكناً ، فإن النوع من الناس الذين أكلمك عنهم ، والذين لم يقبلوا أن يقوموا بالواجب الإنساني وهربوا من ممارسة الحب . . لا شك بأنهم سيرجعون إلى الأرض بشكل بغال» .

وفي المقطع التالي يتجرأ زوربا على هدم حجر الأساس الذي قامت عليه الفضيلة الدينية عموماً :

«سبق لي وأن خرقت الوصايا العشر جميعاً . كم أتمنى لو كان هناك أكثر من عشر وصايا لأخترق حرمتها كلها ، ولو أن الله كان حقيقياً ، لقمت بها أيضاً من دون خوف . . فهل تظن أن الله سيتنازل ويحاسب دودة أرض مثلي؟ ! ويستشيط غضباً لأنني قمت بغلطة بسيطة . لا أظن ذلك» .

***

ولكن هل يمكن تصنيف عبارات زوربا السابقة ضمن نطاق الإلحاد أم الإيمان؟

في اعتقادي أن ذلك لا يهم . . المهم أن زوربا ضرب معيار الفضيلة التقليدي وتجرأ على هدم الأسس التي قام عليها النظام الأخلاقي المرتبط بالظاهرة الدينية . . قد يكون قد فعل ذلك لحساب فكرة وجود الله ، وهو الراجح في نظري ، لكن أهمية ذلك تتراجع لحساب القدرة الزوربية على ضرب الركائز التي بُني على أساسها النظام الأخلاقي الذي تخلّق في رحم الظاهرة الدينية . . وهو ما لم يتمكن من الاجتراء عليه أحد ما ، سواء من منطلق الحادي أم إيماني .

قلت إنني أرجح أن زوربا قال وفعل ما سبق من منطلق إيماني . وفي الأسطر التالية يؤكد زوربا أن مفهوم الإيمان العميق يتخطى حدود الخير والشر التي تربط المؤسسة الدينية الإيمان بها ، ولا يعتبر أن الفضيلة وخصوصاً في صورتها التقليدية دليلاً على الإيمان أو مقياساً لرضا الرب عن خلقه :

«أنا أقول إن الله لا يسأل بالمرة . فأنا لو كان عندي ولدان ، أحدهما طيب ، والثاني رديء ، لكنت قد قبلت بهما وتركتهما يأكلان على مائدة واحدة ، مائدتي ، إلا أنني لا أعلم لماذا أفضّل الثاني ، ربما لأنه يشبهني . ألا تظن بأني أشبه الرب؟ وماذا يمنع ذلك؟ فأنا أحسن من الأب أسطفان الذي يقضي لياليه بالسجود وجمع القروش» .

زوربا يوازي من حيث العمق والجرأة والتمرد ، الظاهرة النيتشوية التي تبقى متفردة في تاريخ الفكر البشري باعتبارها الظاهرة الفكرية الأكثر أهمية على الصعيد الأخلاقي ، بعد الظاهرة الدينية . . وهذا يعني أنه يمكن لها أن تحدث تأثيراً موازياً للتأثير الذي تركته الظاهرة الدينية في حياة البشر .

لكن ماذا عن البناء نفسه . .؟ وهل يقضي الإنسان بقية حياته في العراء بعد أن ينتهي من تقويض البناء الجدير بالزوال ، هذا إذا كان جديراً بالزوال فعلاً؟

لقد وجد نيتشه الجواب على هذا السؤال في الإنسان المتفوق أو السوبرمان الذي بشر بولادته . . لكن ألا تشبه فكرة السوبرمان الذي ما يزال جنيناً في رحم المستقبل أو في بطن الغيب ، فكرة المسيح المنتظر التي تؤمن بها الأديان السماوية الثلاثة . .؟

إذا كان الأمر كذلك فإن من المشروع لكل باحث أن يتساءل عن مدى النجاح الذي حققه نيتشه ، في التحرر من روح المسيحية وجوهرها؟

يقول نيتشه عن الظاهرة الدينية وسبب معاداته لها من خلال الباب الذي سمّاه (الكهنة) :

«ليُسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرّن على الاعتقاد بمخلصهم ، إذ لا يلوح لي أن أتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص» .

فيما يتعلق بالأتباع فإن نيتشه على حق من وجهة نظري ، فكثير من هؤلاء لم يتمكنوا من الوصول إلى الخلاص الذي يبشرون به ، لكن هذا لا يعيب المخلص نفسه إذ إن عدم فهم الأتباع لا يمكن أن يؤخذ على من أطلق التعاليم التي تجاوزت الزمن .

في رأيي إن العبارة السابقة لا تجسد الكفر بقدر ما تجسد خيبة نيتشه الذي تطلع يوماً إلى الخلاص عن طريق الدين . إنه لم يقتنع بأن الدين يحمل الأمل الذي كان يتوق إليه . . أو بمعنى آخر لم يكن يحمل الخلاص الذي كان ينشده .

ويسبب ذلك راح نيتشه يبحث عن الخلاص بعيداً عن الدين ولكن ليس بعيداً عن منطقه ، إذ إنه راح يفتش عن مخلص جديد وأمل جديد ، أي إن الأمل كان هو باعث نيتشه فيما يرى الكثيرون بأن الكفر كان هو الباعث وراء أفكار نيتشه .

يقول نيتشه عن ذلك في نهاية الجزء الأول من كتابه هكذا تكلم زرادشت :

«لقد مات جميع الآلهة ، فلم يعد لنا أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق . فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عندما تبلغ الشمس الهاجرة» .

الدين هو الذي جلب الأمل للبشر عن طريق تبشيره بالخلاص ، وإذا كان الخلاص الذي أعلنته الأديان لم يقنع نيتشه فإن المعيار الحقيقي للكفر هو إنكار مبدأ الخلاص نفسه . وهو ما لم يتوصل إليه نيتشه عبر كفره المعلن .

* * *

لقد تلقى نيتشه تربية مسيحية متزمتة ، وعندما استوى رجلاً ، فإنه كان يتميز بنفوره من كل ما تدرجه المسيحية ضمن خانة الرذائل ، بل وكان حتى أثناء تبشيره بالجسد ودعوته إلى تمجيد الشهوة ، أشبه في سلوكه الشخصي بالقساوسة والرهبان . . إذن كيف يمكننا أن نضع ثقتنا في أفكار لم ترتق يوماً إلى مرتبة السلوك ، ولم تكتسب حياة حقيقية من خلال اللحم والدم ، ولم تخرج من أسر الأوراق والكتب؟

حتى العزلة التي وجد فيها ملاذه وإلهامه ، فإنه لم يمارسها على طريقة الحكيم بوذا الذي مارسها عبر ارتحاله إلى الغابات والقفار لسنوات ليست بالقليلة ، بحثاً عن ذاته .

قد يكون نيتشه قد نجح في توجيه ضربة قاصمة للظاهرة الدينية ، وهو ما فعله قبله كثيرون من أمثال سبينوزا وفولتير وكانت وغيرهم ، رغم أن الأخيرين قد وجهوا ضربتهم القاصمة للقراءة التقليدية المغلقة للأديان السماوية . . لكن ماذا عن الظاهرة الإيمانية نفسها . .؟ ماذا عن المعتقدات التي لا تحتاج إلى تعاليم أو طقوس أو مؤسسة أو منهج ، لكي تمتزج بالوجدان وتختلط

بالدم وتتسلل إلى اللاوعي . .؟ ماذا عن الإيمان بالمخلص الذي يجسد التوق الشديد لتحقيق التجربة البشرية الكاملة . .؟ ماذا عن الإيمان بالخلاص الذي يحافظ على الحبل الذي يربط بين السماء والأرض ، ممدوداً . .؟ وسواء كان اسمه المسيح أم السوبرمان ، فماذا عن هذا التعلق بحلم منح التجربة البشرية صفة الكمال . .؟ أليس من ينشد الكمال الأرضي يفعل ذلك بتأثير من إيمانه بالكمال السماوي . .؟

انظر هنا إلى نيتشه وهو يعلن السوبرمان أو الإنسان المتفوق بديلاً للأديان من خلال الباب الذي عنون : إخوتي في السلاح :

«ليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم ، ولتكن هذه الأماني عبارة عن أرفع فكرة في الحياة . وما أرفع فكرة لكم ، وأنا أستميحكم إيداءها لكم كآمر ، إلا هذه القاعدة : ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه» .

وهنا يعلن عبر الباب الذي دعاه بالجزر السعيدة ، الإنسان المتفوق بديلاً لله :

«لقد تجلى بهاء الإنسان المتفوق لعيني في هذا الخيال الطارق فما لي وللآلهة بعد» .

* * *

من الأكيد أن نيتشه فشل في توجيه ضربة مؤثرة للظاهرة الإيمانية كتلك الضربة الموفقة التي وجهها بالفعل للظاهرة الدينية . . فطالما كان الإنسان يسعى إلى تحقيق الكمال ، فهذا

يعني أنه لم يتخلص من جذور الإيمان الراسخة في أعماقه . . فالكمال حالة لا تتحقق على الأرض ولا تتجسد من خلال الحياة التي تتسم بالنقص وتختلط بالفناء . . ولذلك يبقى البحث عن الكمال هو التعبير الأكثر حيوية عن رغبة الإنسان في الخلود . . وهي رغبة لا تنشأ خارج الظاهرة الدينية أبداً .

انظر هنا إلى نيتشه كيف يعبر عن معاناته كملحد مصوراً الإلحاد شتاءً قارس البرودة ، عبر الباب الذي أطلق عليه (على جبل الزيتون) :

«إنه لشديد الوطأة هذا الضيف - الشتاء - ولكنني أحترمه ولا أفزع منه إلى إله النار كما يفعل المخنثون ، لأنه خير للإنسان أن تصطك أسنانه برداً من أن يلجأ إلى الأصنام ، ذلك ما تقول به غرائزي فأنا عدو كل صنم ناري يضطرم في وجومه» .

هل هذا كلام ملحد حقيقي أم أنها كلمات رجل لا يجد في الدوافع الانتهازية الناشئة من الضعف للمتدينين التقليديين ، إلا ما يثير اشمئزازه؟

إنها كلمات تشبه كلمات المتصوفة الذين يحبون الله من دون غايات ولا يرجون جزاءً من وراء هذه المحبة ولا يطمحون إلى ما يطمح إليه العابدون التقليديون من الاحتماء بالله لتسكين قلقهم الناشئ عن حرصهم على الدنيا ، ومن خوفهم الذي يصل إلى درجة الفزع من الموت .

تأمل ما يقوله نيتشه عن المؤمنين التقليديين عبر الباب الذي سمّاه (المسحورون بالعالم الثاني) :

«إن المتعب الذي يطمح إلى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة ، بطفرة قاتلة ، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حداً لا يستطيع عنده أن يريد ، إنما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الأخرى» .

هذا هو نيتشه . . ليس ضد مبدأ الإيمان بالله ، لكنه ضد التصور الذي يرى المتدينون الله بواسطته . وإن كان نيتشه قد أعلن وصرح كثيراً بأنه لا يؤمن بالله مطلقاً ، إلا أنه لم يعارض مبدأ الإيمان نفسه بل إنه دعا إليه كثيراً عبر حضّ الناس على الإيمان بالسوبرمان الذي لم يكن في الواقع سوى بديل لله .

إنه حتى لم ينكر وجود مخلصين من المتدينين رغم تحذيراته لهم من الكهنة والمؤسسة الدينية . وهذا يعني أن نيتشه لم يكن يناصب المتدينين جميعهم العداء ، وإنما كان يناصب المتطرفين والتقليديين والمنافقين والطامحين إلى السيطرة على الناس باسم الدين ، كل ذلك العداء .

في السطور التالية يحذر نيتشه من خلال الباب الذي أطلق عليه (شجرة الجبل) المتدين المخلص صاحب الدوافع النبيلة من الكهنة ومن رجال المؤسسة الدينية ومن أصحاب السلطة التي يمتلكونها باسم القيم داعياً إياهم بأهل الصلاح :

«إنك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء إليك . فاعلم أن الناس يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق ، غير أن أهل الصلاح يهتمون بهم ، فإذا ما صادفوا في سبيلهم من يتشح بالكرامة دعوه رجلاً صالحاً ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده» .

***

لكن إيمان نيتشه العميق لا يتجلى في أي شيء كما يتجلى في تأثره العميق بالمسيح .

انظر هنا إلى نيتشه كيف يطرح فكرة السوبرمان أو الإنسان المتفوق بديلاً للمسيح : «لا مخلص إلا الإرادة لأن الإرادة مبدعة ، هذا هو تعليمي . وعلى الإنسان أن يتعلم ليبدع . وعليه أن يأخذ عني دون سواي الطريقة التي تبلغه العلم .

من له أذنان سامعتان فليسمع» .

المسألة إذن هي إيجاد البديل لا إلغاء الفكرة من أساسها ، ونيتشه في العبارة السابقة يتقمّص المسيح من دون أن يشعر ، صحيح أنه يسفه مبادئ المسيح لكنه يحاول أن يطرح نفسه أو الإنسان المتفوق بديلاً ، وهذا يعني أنه لم يتخلص من إيمانه بضرورة وجود مسيح ما . إنه يعلن أنه مفتاح الخلاص وأداته ، أي إنه يعلن نفسه مسيحاً آخر ويوكل لنفسه المهمات ذاتها التي اضطلع بها المسيح . حتى عبارات المسيح المأثورة وتراكيبه اللغوية يستخدمها نيتشه كما قرأت في خاتمة عبارته الأخيرة : «من له أذنان سامعتان فليسمع» .

وعلى صعيد المضمون نفسه فقد كرر نيتشه عبر عبارته السابقة ما جاء على لسان المسيح الذي ربط الخلاص بشخصه .

انظر هنا إلى المسيح وهو يعلن ما سبق وقرأته في عبارة نيتشه الأخيرة ولكن بأسلوب مختلف . يقول المسيح في متّى :

«سلمني أبي كل شيء ، فما من أحد يعرف الابن إلا الآب ، ولا من أحد يعرف الآب إلا الابن ومن شاء الابن أن يكشفه له . تعالوا إلي جميعاً أيها المرهقون المثقلون ، وأنا أريحكم . احملوا نيري وتتلمذوا لي» .

لقد كان نيتشه متأثراً بالمسيح إلى أقصى حدود التأثر وخصوصاً عندما يهاجمه ، لدرجة أنه كان يتقمّصه ويكرر عباراته من دون أن يشعر .

انظر إليه هنا وهو يكرر في النصف الأول من العبارة التالية ، وبالحرف الواحد ما قاله المسيح لقنصل روما بيلاطس أثناء استجواب الآخر له :

«مملكتي ليست من هذا العالم فلأذهبن مفتشاً عن جبال جديدة» .

وانظر هنا إلى نيتشه كيف يعود لتقمّص المسيح من دون أن يشعر :

«يقولون لا وقت ننفقه على زرادشت ، ولكن ما أهمية جيل لا يتسع وقته لزرادشت؟» .

ألا يشبه هذا الكلام ما ورد في الإنجيل تحت العنوان العريض الذي وضعه متّى «غباوة هذا الجيل»؟

وانظر هنا إلى نيتشه وهو يتحدث عبر الباب الذي دعاه (على الطريق) ، كيف يتوعد المدينة العظمى أو أورشليم العصر الحديث :

«ويل لهذه المدينة العظمى ، وليت تجتاحها أعاصير النار فتذريها رماداً إذ لا بد من انطلاق هذه الأعاصير منذرة بالظهيرة العظمى ، ولكن انطلاقها مرهون بزمانها ومقدراتها» .

وانظر هنا إلى المسيح وهو يتوعد بلدة كفرناحوم :

«وأنت يا كفرناحوم ، أتراك ترفعين إلى السماء؟ سيُهبط بك إلى مثوى الأموات . فلو جرى في سدوم ما جرى فيك من المعجزات ، لبقيت إلى اليوم . على أني أقول لكم : إن أرض سدوم سيكون مصيرها يوم الدينونة أخف وطأة من مصيرك» .

وانظر إلى المسيح هنا وهو يتوعد أورشليم . يقول يسوع في متّى :

«أورشليم أورشليم ، يا قتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، كم مرة أردت أن أجمع أبناءك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ! فلم تريدوا . هو ذا بيتكم يترك لكم قفراً» .

ليس هناك فرق بين توعّد المسيح لكفرناحوم وأورشليم وبين توعّد نيتشه للمدينة العظمى . لقد تقمّص نيتشه روح المسيح أثناء كتابته أثره الضخم هكذا تكلم زرادشت رغم كل الهجوم الذي شنّه نيتشه على تعاليم المسيح .

أما مسألة الوقت المحدد التي يشير إليها نيتشه وهو يتوعد المدينة العظمى ، فهي تشبه إلى حد التطابق ما كان يذكره المسيح ويردده عبر كثير من المواقع في الإنجيل عن الوقت المحدد لصلبه وقيامته وجلوسه على يمين الآب .

وانظر هنا إلى نيتشه وهو ينذر على طريقة المسيح باقتراب اليوم الموعود :

«سيتدفق النور مكتسحاً هؤلاء الناس جميعاً ، وعندئذ يلمع سيف الظهيرة الكبرى ، سيف الدينونة الفضّاح» .

وانظر هنا إلى ما يقوله متّى في الصفحات الأولى من إنجيله :

«وبدأ يسوع من ذلك الحين ينادي فيقول : توبوا قد اقترب ملكوت السماء» .

وما هو سيف الظهيرة الكبرى الذي يتوعد به نيتشه الناس . .؟ إنه يجيب بنفسه على ذلك إذ يقول متماً عبارته : «سيف الدينونة الفضّاح» . أليس تعبير الدينونة هو مصطلح ديني استخدمه المسيح مرات عديدة عبر الإنجيل؟

ثم أليست الدينونة التي يتوعد بها نيتشه هي تعبير بديل عن ملكوت السماء؟ !

لقد كان نيتشه متقمّصاً المسيح تماماً وهو ينذر ويبشر باقتراب ساعة الإنسان المتفوق . . إنها بشارة الخلاص . . وبدلاً من ملكوت السماء يبشر نيتشه بالسوبرمان أو الإنسان المتفوق . . إنه الخلاص البديل الذي سينهي عذابات الإنسانية ويتوج كفاحها ويحملها على أجنحة الكمال المنتظر .

وانظر إلى نيتشه هنا وهو يكرر ما قاله المسيح عن اضطهاد أبناء الوطن لكل المبدعين والمصلحين والأنبياء :

«ما أنت إلا تبكيت في ضمائر أبناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلاً لك ، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك .

إن أبناء جلدتك لن يبرحوا كالديدان المسمومة لأن العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك» .

والآن قارن بين هاتين العبارتين وبين ما ورد على لسان متى والمسيح في إنجيل متى :

«ولما أتم يسوع هذه الأمثال ذهب من هناك وجاء إلى وطنه ، وأخذ يعلم الناس في مجمعهم ، حتى دهشوا وقالوا : «من أين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم ، وإخوته يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا؟ أوليس جميع أخواته عندنا؟ فمن أين له كل هذا؟» وكان لهم حجر عثرة . فقال لهم يسوع : لا يُزدرى نبي إلا في وطنه وبيته» .

***

ويعيداً عن عبارات النقد اللاذع التي وجهها نيتشه للمسيح ، فإنه لم يخف احترامه له وتعاطفه معه كشخص .

يقول نيتشه من خلال الباب الذي أطلق عليه (تخير الموت) :

«والحق أن ذلك العبراني الذي يمجده المبشرون بالموت البطيء قد مات قبل أوانه ، ولم يزل جمع غفير يعتقد بأن ميتته المبكرة كانت مقدورة عليه .

وما إن هذا المسيح العبراني قد عرف غير دموع قومه وأحزانهم وكيد أهل الصلاح والعدل ولذلك راودته فجأة شهوة الفناء .

ولو أنه بقي في الصحراء بعيداً عن أهل الصلاح والعدل لكان تعلم حب الحياة وحب الأرض ، ولكان تعلم الضحك أيضاً .

صدقوني أيها الإخوة ، إن المسيح مات قبل أوانه ، ولو أنه بلغ من العمر الذي بلغت ، لكان جحد تعاليمه ، وقد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها ، ولكنه لم يبلغ النضوج ، ولم تبلغه المحبة في الشباب فكره الناس وكره الأرض . وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض» .

لا أعتقد أن أحداً وصف نفسه كما فعل نيتشه في السطور السابقة وهو يعتقد أنه يتحدث عن المسيح . لقد كان لنيتشه من النبل ما يكفيه لجحد تعاليمه لو أن العمر امتد به ، ولو أنه شهد الحربين العالميتين الأولى والثانية لجحد نيتشه كل عباراته التي مجد الحرب من خلالها . كيف لا وقد دفع نيتشه ثمناً أعلى بكثير من الثمن الذي يدفعه المفكر عندما يعدل عن أفكاره؟ !

لقد جن نيتشه بسبب إخلاصه ومصداقيته والتزامه بتعاليمه التي لا يطيقها إنسان .

* * *

لقد تأثر نيتشه بالمسيح كما لم يتأثر بأحد ، وها هو في السطور التالية من الباب الذي سمّاه (العناكب) ، يمجد المسيح من دون أن يشعر ويتقمّصه من دون أن يدري :

«احذروا من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فإن نفوسهم خالية من كل صفة حميدة ، وإذا ما همّ أهل الصلاح والإنصاف فلا تنسوا أنهم لم يتخذوا بين الفريسيين مقامهم إلا لما يشعرون به من عجز» .

أليس الفريسيون هم رجال الدين اليهود الذين ناصبوا يسوع العداء لأنه دعا إلى إعادة النظر في قراءة الشريعة وجاء بتعليمات جديدة أكثر عدالة وأوسع رحمة ، وأعطى الفضيلة نفسها مفهوماً جديداً؟

لماذا رمز نيتشه إلى رجال المؤسسة بالفريسيين . وهل يعني كرهه للفريسيين الذي بلغ هذا الحد حيث اعتبر أنهم تجسيد للحقارة والدناءة ، إلا جزء من حبه وتعلقه بعدوهم : المسيح؟

والآن تمعن في الواقعة التالية التي وردت في إنجيل متى عن جدال المسيح والفريسيين حول حرمة السبت ، وهو الجدال الذي يوضح مدى حقارة الفريسيين الذين وصفهم نيتشه : «من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فإن نفوسهم خالية من كل صفة حميدة» :

«وذهب من هناك فدخل مجمعهم . فإذا رجل يده شلاّء ، فسألوه (الفريسيون) : «أيحل الشفاء في السبت؟» ومرادهم أن يشكوه . فقال لهم : «من منكم ، إذا لم يكن له إلا خروف واحد ووقع في حفرة يوم السبت ، لا يمسكه فيخرجه؟ وكم الإنسان أفضل من الخروف !

لذلك يحل فعل الخير في السبت» ثم قال للرجل : «أمدد يدك» فمدها فعادت صحيحة كالأخرى . فخرج الفريسيون يتآمرون عليه ليهلكوه» .

والآن انظر إلى نيتشه وهو يتقمّص المسيح عبر هاتين العبارتين التي خاطب بها أتباعه ومريديه ، أو بالأصح حوارييه عبر الباب الذي أطلق عليه (أنشودة الفرح) :

«لا ريب في أنني غابة اشتبكت فيها قاتمات الأشجار وساد الحلك أرجاءها ، ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيها الورد . وليجدن أيضاً الإله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحاً بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه» .

«إنكم في عزلة عن العالم ، أيها المنفردون ، ولكنكم ستصبحون شعباً في آتي الزمان ، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم نفسكم اليوم .

ومن هذا الشعب سيولد الإنسان المتفوق» .

وقارن هنا بين ما ورد على لسان المسيح في إنجيل متى وبين ما ورد من وعود بالنعيم المقيم في عبارة نيتشه السابقة :

«طوبى لكم إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم كل كذب من أجلي ، افرحوا وابتهجوا : إن أجركم في السماوات عظيم ، فهكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم .

أنتم ملح الأرض ، فإذا فسد الملح ، فأي شيء يملحه؟ إنه لا يصلح بعد ذلك إلا لأن يطرح في خارج الدار فيدوسه الناس» .

وبعيداً عن المصطلح الديني الذي استخدمه نيتشه في العبارة السابقة (الشعب المختار)، تتجلى إحدى مظاهر تأثر نيتشه بالمسيح من خلال المقارنة بين عبارة نيتشه السابقة وبين عبارات المسيح السابقة بالإضافة إلى العبارة التالية التي وردت في متى أيضاً:

«أنتم نور العالم. لا تخفى مدينة على جبل، ولا يُوقد سراج ويوضع تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت. هكذا فليضئ نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة فيمجدوا أباكم الذي في السموات».

***

زوربا لم يكن متشبعاً بروح الإيمان كما كانت الحال مع نيتشه. بل على العكس.. فزوربا لم يكن يبحث عن الكمال ولم يكن يؤمن بالخلاص، ولذلك فقد كان من اليسير عليه أن ينقض ذلك البناء الشامخ داخل زوربا، لكنه كان يتقبل في الوقت نفسه تمسك الناس بالإقامة داخله من منطلق الإشفاق الشديد عليهم.

قد يكون زوربا قادراً على نقض البناء والعيش حراً في العراء، وهو قادر على ذلك بالفعل، لكن ماذا عن باقي البشر..؟ تلك المخلوقات الضعيفة المسكينة..؟ إنها حسب رأي زوربا، لا تحتمل الإقامة في برد العراء من دون وجود جدران تأوي إليها، وسقوف تغطيها، وأبواب تحتمي وراءها من هبّات الريح وزخّات المطر.

استمع هنا إلى هذا الحوار بين زوربا وصديقه الكاتب :

«قلت بأنك تود أن تفتح عيون الناس . حسناً ، اذهب وافتح عيني العم أناغنوستي . لقد شاهدت كيف كانت تتصرف زوجته ، بانتظار أوامره . كأنها كلبة تستجدي . اذهب إليه واخبره بأن النساء لهن حقوق الرجال نفسها تماماً . وأنه من الوحشية أن تأكل أعضاء الخنزير بينما هو يئن من الألم أمامكم ، وأنه من البساطة والجنون أن نرفع الشكر لله لأنه يملك كل شيء بينما نشتغل نحن حتى الموت . ما الذي سيفيده العم أناغنوستي من هذه الإيضاحات الفارغة . سوف تسبب له الكثير من الإزعاج . وما الذي ستفيده الجدة أناغنوستي من هذا أيضاً؟ سوف تشعل النار في البيت وتبدأ المشاكل العائلية . وتحاول الدجاجة أن تكون ديكاً . ويبدأ الزوجان بالتشاحن . دع هؤلاء الناس أيها الرئيس ودع عيونهم مغمضة . ولكن لنفترض بأنك فتحت أعينهم ، فما الذي سيرونه . . .؟ بؤسهم . دع عيونهم مغلقة ، ودعهم يغرقون في أحلامهم .

وصمت زوربا لحظة وحك رأسه :

- إلا . . إلا . . إلا إذا استطعت ، عندما يفتحون أعينهم ، أن تجعلهم يرون عالماً أفضل من هذا الذي يعيشون فيه الآن . هل تستطيع ذلك؟

- نعم أستطيع أن أريهم عالماً أفضل .

- أتستطيع ؟ إذن دعنا نسمع شيئاً عنه .

- لا أستطيع أن أشرحه لك ، فلن تفهم ما أعنيه .

- هذا يعني بأنه ليس لديك شيئاً لتريه . لا تظن بأنني غبي أيها الرئيس . وإذا قيل لك ذلك فقد خدعوك . ربما أنا لست متعلماً تماماً كالعم أناغنوستي ولكني لست غبياً . فإذا لم افهم أنا ، فما الذي تنتظره من هؤلاء المساكين أن يفهموه؟ وماذا عن الناس الذين هم مثل العم أناغنوستي في هذا العالم ، هل ستريهم ظلمات جديدة؟ إنهم قد استطاعوا أن يتدبروا أمرهم حتى الآن ، عندهم أولاد وأحفاد أيضاً . والله يجعل أولادهم صمياً أو عمياً ولكنهم مع ذلك يقولون: «ليتمجد اسم الرب» ، يشعرون بأنهم مرتاحون في بؤسهم . إذن دعهم كما هم ولا تقل شيئاً» .

وهذا تقريباً ما قاله فولتير نفسه عندما سئل مرة عما إذا كان يمكن لمجتمع من الملحدين أن يستمر :

«نعم إذا كان أبناء هذا المجتمع كلهم من الفلاسفة ، ولكن من النادر أن يكون كل الناس فلاسفة . ولا بد للبلد ليكون صالحاً أن يكون له دين . أريد من زوجتي وخياطي ومحامي أن يؤمنوا بالله وبذلك يقلّ غشهم وسرقاتهم لي . وإذا كان لا وجود لله يجب علينا أن نخترع إلهاً ، لقد بدأت أعلق أهمية أكثر على السعادة والحياة من الحقيقة» .

إن عملية الهدم سهلة . . لكن ما هو البديل . .؟ وهل تصلح الحقيقة – إن كانت فعلاً حقيقة – بديلاً للحياة؟ !

الفصل السابع
فلتحيا المرأة

عندما كان نيتشه يهاجم الفضيلة المسيحية ، فإنه كان يوجّه هجومه من دون أن يشعر ، إلى المرأة .

الظاهرة المسيحية أعادت الاعتبار للقيم الأنثوية بعد أن ظلت قيم الذكورة تهيمن على وجدان وضمير وذاكرة البشر لأمد طويل . الظاهرة المسيحية هي أبرز تجسيد لروح الأنوثة التي افتقر الوعي الجمعي للمجتمعات البشرية قاطبة ، إلى وجودها . . فالحضارة أو على الأقل الجزء المدوّن منها ، رجل ، والعبقرية كذلك رجل . . لكن الحياة امرأة ، وكذلك المحبة .

المسيح يتميز عن نظرائه من القادة والأنبياء والمصلحين ، بأنه أول من حقن الحضارة الإنسانية بالروح الأنثوية التي تمجد الحب وتحتقر الحرب ، ولذلك فإنه لم يكن من المستغرب أن يكون للأنثى هذا الحضور القوي في الظاهرة المسيحية عبر شخصية مريم العذراء . في حين تفتقر كل الظواهر الدينية الأخرى ، إلى وجود رموز نسائية تحتل هذا الموقع المهم الذي تحتله العذراء في المسيحية .

وعندما برزت الظاهرة الصوفية في الإسلام بتأثير واضح من الفلسفات الشرقية ومن الروح المسيحية ، برزت معها قيم الحب والسلام والرحمة جنباً إلى جنب مع بروز رمز فاطمة الزهراء : الشخصية التي ترمز إلى قيمة المحبة غير المشروطة والتي تشبه إلى حد بعيد ، العذراء التي يتجسد من خلالها مفهوم الأمومة الإلهية في المسيحية .

وبالطبع فإنه لم يكن من المستغرب أن ترتبط الظاهرة الصوفية في الإسلام ، بشخصية امرأة أخرى هي الناسكة رابعة العدوية التي تحتل مكانة متميزة في تاريخ الحركة الصوفية .

لقد تبلورت من خلال تجليات رابعة العدوية التي تجسدت خصوصاً في شعرها ، مجموعة القيم التي تأسست الحركة الصوفية في الإسلام بوحي منها ، قبل أن تتبلور أو تبرز أو حتى تظهر عند أحد غيرها .

خارج هاتين الظاهرتين ، المسيحية والصوفية ، لا يوجد للمرأة تأثير مباشر وحضور واضح على مستوى الرمز عبر جميع الظواهر الدينية الأخرى إلا بشكل محدود في الظاهرة الشيعية . أما الظاهرتان البوذية والكونفوشيوسية ، ورغم ما لهذين المعتقدين من نزعة روحية عميقة صاحبها نزوع عجيب نحو السلام ونبذ العنف ، فإن حضور المرأة فيهما يكاد يكون معدوماً .

***

نيتشه كان يشترك مع المسيح في كون الاثنين نتاجاً لبيئة أنثوية محضة . . لكن وبقدر ما تشبّع المسيح روحياً بالقيم الأنثوية ، وبقدر ما استلهمها وهو يسن تعاليمه الأخلاقية الثورية ، بقدر ما رفض نيتشه التصالح مع الجانب الأنثوي في حياته ككاتب وكإنسان .

لكن نيتشه ومن دون أن يشعر ، كان قد تسرب إلى فكره ووجدانه ولا شعوره ، شيئاً غير قليل من الروح الأنثوية التي ظهرت في حياته وآثاره من خلال عدة خصائص وملامح تميز بها ككاتب وإنسان .

من هذه الخصائص ، مقدرة نيتشه الفذة على التقاط التفاصيل وميله العجيب إلى مناقشتها وتحليلها . أما على مستوى السلوك الشخصي ، فقد تجلّى التأثير الأنثوي على حياة نيتشه ، في ذلك النزوع العجيب نحو التعفف ، حيث لم يعرف عن نيتشه رغم تمجيده الجسد والحياة الأرضية ، أي ميل لحياة اللذة والدعة والعبث التي يميل إليها المبشرون بحياة الجسد والتي ينزع إليها دعاة الفضيلة الأرضية .

تشبّع نيتشه ككاتب بالروح الأنثوية ، يتجلّى أيضاً في سمة التوليد التي تكاد تطغى على أسلوبه وتطبعه بطابعها . فنيتشه كان يمتلك أسلوباً تتولد فيه الفكرة من رحم الأخرى بسلاسة شديدة . . وهو في هذا يشبه المتنبي الذي كان هو الآخر نتاج بيئة أنثوية محضة .

***

وكنيتشه تماماً ، فقد كان المتنبي رمزاً لإرادة القوة وداعية لإحياء قيم الذكورة الأصيلة التي تكاد تتمحور حول البطولة ، على عكس القيم الأنثوية التي تتمحور حول الحب والحياة .

لقد كانت شحنة الذكورة في كتابات نيتشه وأشعار المتنبي ، حيلة دفاعية تنبعث من ذلك الشعور بالخوف وعدم الأمان الذي لا بد وأن يكونا قد خبراه في طفولتهما ، حيث نشأ الولدان في كنف نساء لا بد وأنهن كن يتعرضن للمتاعب من جراء افتقار الحماية الذكورية اللازمة في مجتمعات تحكمها مفاهيم القوة الغاشمة .

لقد أحب المتنبي جدته كما لم يحب أحداً ، وقد أحب نيتشه أمه وأخته كما لم يحب أحداً . . وهو ما يجعلني أعتقد بأن ما يبدو للوهلة الأولى في نتاجات نيتشه والمتنبي انتصاراً لقيم الذكورة ، ما هو إلا رغبة تمّ تأجيلها قسراً ، في توفير الحماية لمن أحباهما من إناث .

وككل الحيل الدفاعية ، فإن ما يظهر على السطح لا يشكل أهمية في حد ذاته ، ولكن أهميته تنحصر في كونه مؤشراً للصراعات الداخلية التي تعبر عن نفسها في معظم الأحيان ، بصورة عكسية .

يقول زوربا من دون اللجوء إلى حيل نفسية على طريقة نيتشه والمتنبي :

«أنا لا أستحي من البكاء أمام الرجال ، ولكن أمام النساء ، أبداً ، لا أبكي . . أبداً» .

من هذه الحاجة إلى توفير الحماية التي يحاول زوربا توفيرها لها عبر امتناعه عن البكاء أمامها ، تعلمت المرأة أن تتقن فن الإغواء .

الإغواء وسيلة للبحث عن الحماية المنشودة في مجتمعات لا تقيم للمرأة وزناً خارج إطار اللذة الجسدية ، ولا تنظر إليها إلا كأداة لتحقيق هذا النوع من المتعة . إنه القهر والاستغلال الذكوريان اللذان يدفعان بالمرأة وبشكل يشبه الهوس ، إلى المبالغة في الاهتمام بمظهرها الخارجي وإلى الاستماتة في الإبقاء على مفاتنها قيد العمل . . وإلا فإن الإهمال سيكون مصيرها المنتظر .

زوربا يدرك أن المرأة إذا نجحت في المحافظة على كونها جميلة وبالتالي مرغوبة ، فإنها ستكون قادرة على توفير أو استقطاب الحماية الذكورية التي لا تستطيع مواجهة الحياة من دون وجودها . . أما إذا لم تنجح في ذلك ، فإن الإهمال الذي يمكن أن يخلف العوز والشعور بالخطر ، سيكون من نصيبها .

عبر هذا المقطع ، يعبّر زوربا عن هذه الخاصية التي اكتسبتها الأنثى منذ أن نجحت قيم الذكورة في السيطرة على المجتمعات البشرية :

«أصغ إلي أيها الرئيس . . . لقد رأيت جميع الأشياء ، وعملت كل شيء . . . إن المرأة ليس عندها من شيء آخر في نظرها . إنها مخلوق ضعيف مشاكس ، وإذا لم تقل لها إنك تحبها وتريدها فإنها تبدأ في البكاء . وربما هي الأخرى لا تريدك إطلاقاً ، بل

ربما تحتقرك وربما تقول لك كلا . فهذه مسألة أخرى . لكن جميع الرجال الذين يرونها يجب أن يشتهونها ، فهذا ما تريده تلك المخلوقة المسكينة ، لذلك فالأجدر أن تحاول إرضاءها» .

إنه الإغواء الذي يشكل مصدر القوة بالنسبة إلى المرأة ، وهو إغواء تفنّنت النساء في اختراع العديد من أشكاله ، تدفعهن إلى ذلك غريزتهن في حب البقاء ، لا في حب الجنس حيث يستجيب الرجل لمحاولات إغوائهن ثم يصاب بالإحباط ويلعن المرأة عندما لا يصل إلى فراشها .

***

وكلما كان المجتمع أشد ذكورية ، كلما تفنّنت النساء في ابتكار أساليب متطورة للإغواء . . ولعل الأسلوب العقلي والفني الذي استخدمته شهرزاد في إغواء شهريار ، هو أكثر أساليب الإغواء تطوراً وتعقيداً . . ولا عجب . . فقد جاءت هذه الأساليب استجابة لضرورات أنثوية خلقتها أقسى أنواع التسلط الذكوري التي عرفها التاريخ ، على المرأة .

***

المسيح قاد أكبر ثورة أنثوية على صعيد الأخلاق طوال تاريخ البشرية . . لقد اكتشف المسيح بذور جديدة للثورة لم تعرفها البشرية قبله ، ولقد وجد في الأنثى جذوراً أصيلة بقدر ما هي غير مكتشفة ، للتمرد الذي يقود إلى الهدم من دون أن يقود إلى العنف . . إنه هدم ناعم إن جاز التعبير .

لكن ثورة المسيح هذه لم تنجح على الأرض ، بل إنها تعرضت لأبشع أنواع المصادرة بمجرد أن برزت الكنيسة بوصفها مؤسسة سلطوية قمعية ، تحتكر التشريع وتمتلك الأدوات اللازمة لتنفيذه . . مع أن المسيح جاء بالنعمة كمرحلة تالية للشريعة والألواح القديمة .

وهكذا عاشت المرأة في ظل المسيحية ، عهوداً جديدة من الاضطهاد والقهر والاستغلال .

المشروع النيتشوي وإن كان يختلف مع روح المسيح في هذه الناحية ، فإنه لم يختلف أبداً مع مؤسسة الكنيسة قبل محاولات الإصلاح التي شهدتها الكنيسة في القرون الأخيرة ، بل إنه قد زايد في بعض الأوقات على كل القيم الذكورية التي ضخّتها مؤسسة الكنيسة في العقيدة المسيحية .

من هنا فإن نيتشه لم يتحرج من إطلاق صفة «الفضائل المخنثة» على مجموع تعاليم المسيح التي كانت تدعو إلى اعتناق وتبني نوعاً جديداً من القيم الأخلاقية .

لقد كان نيتشه يحتقر الضعف ويعتبر أن المرأة هي التجسيد الحي للضعف ، بينما كان زوربا يشعر بالتقدير حيال ضعف النساء .

استمع هنا إلى زوربا وهو يشرح عبر هذه الواقعة قسوة الذكورة ، مقابل ضعف الأنوثة الذي يجعلها أكثر التصاقاً بكل منابع الحب في الحياة :

«لقد كانت لي جدة تبلغ الثمانين من عمرها . إن قصتها حقيقية تماماً . وكانت تسكن قريباً من منزلنا فتاة صبية نضرة كالوردة ، واسمها كريستالو .

وفي كل يوم سبت عند المساء ، كنا نحن الشبان نذهب إلى الحانة لنحتسي كأساً من الخمر ونتتشي به ، ثم نضع ضمة من الحبق وراء آذاننا ويأخذ ابن عمي قيثارته ونذهب لنتنزه . يا للحب . . يا للعاطفة . . ! كنا نريدها وكل يوم سبت كنا نتوجه لها مرة واحدة ليقع اختيارها على واحد منا .

حسناً . . هل تصدق هذا أيها الرئيس؟ !

يا له من لغز . إن في النساء جرحاً لا يلتئم بالمرة . كل الجروح تشفى إلا هذا . لا تعتمد كثيراً على كتبك . . . إنه لا يلتئم أبداً . لماذا . . . لأنها قد أصبحت في الثمانين؟ ومع ذلك فالجرح لا يزال مفتوحاً .

إذن كل سبت كانت العجوز المتصابية تجر أشياءها نحو النافذة . وتتناول مرآتها الصغيرة وتحاول تسريح ما تبقى من شعرها وتنشره على فرقين فوق جمجمتها . ومن ثم تختلس نظرات سريعة حولها خوفاً من أن يشاهدها أحد ، وإن اقترب أحد منها ، تندفع إلى الوراء لتستكين بهدوء وتدعي النوم . ولكن كيف كانت تستطيع النوم؟ فإنها بانتظار النزهة . وهي في الثمانين من عمرها . . . هل ترى الآن هذا اللغز المجهول الذي في المرأة أيها الرئيس؟ إن هذا يشدني الآن للبكاء . أما في ذلك الوقت فقد كنت

تافهاً ، ولم أفهم هذا . وهذا ما كان يدفعني إلى السخرية . في أحد الأيام غضبت منها ، لقد كانت توبّخني لأنني كنت أجري خلف الفتيات . عندها صحت في وجهها من دون مواربة وبكل صرامة : لماذا تدلكين شفتيك بورق الجوز كل سبت ، وتسرحين شعرك؟ أتظنين بأننا نتنزه من أجلك؟ إننا نأتي من أجل كريستالو . أما أنت فلست إلا جيفة نتنة .

هل تصدق أيها الرئيس؟ في ذلك اليوم فقط عرفت ما هي المرأة . دمعتان دفقتا من عيني جدتي . انكمشت كأنها كلبة ، وراحت ذقنها ترتجف . وصحت : «كريستالو» . واقتربت منها أكثر لكي تتمكن من أن تسمعني بوضوح : «كريستالو» . إن الشبان حيوانات قاسية . إنهم ليسوا من المخلوقات الإنسانية . لا يفهمون شيئاً .

عندها رفعت جدتي ذراعيها النحيلتين نحو السماء وصاحت : «عليك اللعنة من أعمق أعماق قلبي» . ومنذ ذلك اليوم بدأت صحتها تتلاشى وتتدهور . وبعد شهرين كان يومها قد بدأ يقترب . وبدت أيامها معدودة . وعندما كانت تحتضر شاهدتني ، فشهقت كأنها حشرة وحاولت أن تمسكني بأصابعها وقالت : «لقد كنت أنت من أنهيت حياتي»» .

هذه القسوة أصيلة عند الذكور وليست مكتسبة ، وهذا ما جاء المسيح ليجتثه من جذوره ، عبر ثورة راديكالية في سلامها ، إن صح التعبير .

يقول المسيح في متّى :

«سمعتم أنه قيل : «العين بالعين والسن بالسن» أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فاعرض له الآخر ، ومن أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك ، فاترك له رداءك أيضاً . ومن سخّرك أن تسير معه ميلاً واحداً ، فسر معه ميلين . من سألك فاعطه ، ومن استقرضك فلا تعرض عنه» .

هذه العبارات هي التي تعبر عن جوهر المسيحية الثوري في أقصى مستوياته ، إنها ثورة لاجتثاث أسباب العنف ودوافعه ، وليست ثورة للتغلب على العنف بمواجهة نتائجه . . وهو ما سيؤدي حتماً إلى الانقياد إلى منطقه .

هذه الروحية الأنثوية التي تتسم بالسلبية الظاهرة على السطح ، هي الأعمق تمرداً وثورية طوال تاريخ البشرية . . وهي الروحية نفسها التي انطلق منها واستلهمها المهاتما غاندي في ثورته التي كانت الأشرس في التاريخ الحديث ، رغم مظاهرها الهادئة وروحها السلامية .

لكن نيتشه فشل في فهم الجذور الثورية لما قد يبدو للوهلة الأولى روحاً انهزامية تحث على الخضوع والاستسلام .

يقول نيتشه في مقدمة الجزء الرابع من كتابه هكذا تكلم زرادشت ، عن مبادلة الإساءة بالإحسان :

«إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شرّه بالخير لأنه بذلك يستصغر نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم فلا يسرني أن تمنحوا البركة ، إن ما يسرني هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضاً ، وإذا ما نزلت

بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدي مثلها وأرفقوها بخمس مظالم صغرى ، لأنه ما من مشهد أشد قبحاً من مشهد من لا يخضع إلا للظلم» .

وفي موقع آخر من الكتاب يهاجم نيتشه تعاليم المسيح بشكل مباشر معتبراً إياها عائقاً في سبيل التقدم ووسيلة لإحكام سيطرة إرادة الضعف على العالم :

«إن الدعوة إلى العذاب وحمل خطايا العالم كانت تليق ببشير الطبقة الحقيرة بين البشر ، أما أنا فإنني أسر بالخطيئة كأعظم تعزية» .

لا . . لم يكن المسيح يبشر بسيطرة إرادة الضعف ، بل بسيطرة إرادة المحبة . . وهنا تكمن القوة الحقيقة العميقة التي تشربها المسيح من المرأة .

إن إرادة القوة التي بشّر بها نيتشه لم تكن في حقيقتها سوى إرادة للعنف . . والعنف فضيلة ذكورية تعكس المنظار الذي يرى الرجل بواسطته الحياة .

وإذا كانت المرأة تنظر إلى الحياة باعتبارها هبة يجب الحفاظ عليها ومدّها بأسباب الاستمرارية ، فإن الرجال ، أو بمعنى أكثر دقة الذكور ، ينظرون إلى الحياة باعتبارها معركة حربية وميداناً للصراع المستديم .

وطالما أن الحياة عبارة عن ميدان للصراع وجبهة قتال ، فإن المرء يجب أن يتحلى بالقدر اللازم من القسوة حتى يربح الحرب التي لا رحمة فيها .

انظر هنا إلى نيتشه وهو يدعو إلى استخدام القسوة بمنتهى الفجاجة :

«ما أحسبني قاسياً عاتياً . ومع ذلك فإنني أقول لكم : إذا ما رأيتم متداعياً إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه .

إن كل شيء يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان ، فمن ترى يحاول دعم ما هوى؟ أما أنا فإنني أريد سقوطه .

كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه على الأقل أن يسرع بالسقوط» .

أما ما يتجاوز القسوة التي تجلت في العبارات السابقة فيصرح به نيتشه هنا من دون مواربة أو شيء من التحفظ :

«يجب أن يرسو حق العقاب على اتخاذ المجرمين أدوات للتجارب العلمية – ومنها التجارب لإيجاد طريقة جديدة للتغذية – وبذلك يبرر استخدام الفرد لخير المجموع» .

لم يستطع فكر نيتشه أن ينفذ إلى الروح الأنثوية التي بثها المسيح فاعتقد أنها تجسيد للضعف ، في حين أن الضعف لا يكمن في شيء بقدر ما يكمن في التعاليم القاسية التي تبيح انتهاك آدمية الفرد وتشرع للتضحية بالمجرمين واستخدامهم كفئران تجارب ، مع أن المجتمع هو الذي يجب أن يعاقب على الجريمة بوصفه المتسبب الرئيس في وجودها .

لقد انساق نيتشه حاله حال كل الرومانسيين المتطرفين وراء فكرة تحقيق الكمال . . إنه – ككل المثاليين – لم يستطع أن

يتعاطى مع الواقع من دون أن يمتطي صهوة الحلم الذي يصوّر غواية الكمال كأمر قابل للتحقيق .

وعلى هذا الأساس راح نيتشه يشرع للقسوة طالما أنها ستمهد السبيل أمام بلوغ الغاية العظمى : الكمال .

هـذه الرومانسية أو المثالية هي إحـدى خصائص العقل الذكوري المندفع والقلق والخائف إلى حد المبالغة في استخدام العنف والقسوة لتسكين الإحساس بعدم الأمان الذي يسكنه نتيجة عجزه عن تفسير الحياة والوصول إلى حقيقتها .

لا . . لـم يكن نيتشه عدواً للمرأة كما اعتقد الكثيرون . لقد كان نيتشه يتطلع إلى حب مثالي خارج عن قوانين الأرض ، وعندما فشل في وجود وتحقيق هذا الحب راح يشن هجومه الكاسح على المرأة لا لشيء إلا لأنها خذلته حسب اعتقاده .

لـم يكن لرجل يحمل هذا القدر من الرومانسية والمثالية أن يعادي المرأة ، المسألة كل المسألة أن نيتشه كان يتوقع من المرأة أن تتخطى حدود الواقع وترتفع في حبها حتى تبلغ مرحلة الألوهية .

في السطور التالية عبر الباب الذي أطلق عليه (الطفل والزواج) يكشف نيتشه عن رومانسية من الصعب على الرجل أن يبلغها :

«يا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل كانا إشفاقاً يتبادله إلهان يتألمان . ولكن هذا الحب لا يتجلى في الغالب إلا تفاهماً بين إحساس حيوانين وما خير الحب لو تعلمون إلا تخوّل واضطرام في ألم وخشوع ، إن هو إلا المشعل ينير أمامكم مسالك

الاعتلاء . وسيأتي يوم يتجه فيه حبكم إلى مقر أرفع من مستقر ذاتكم . لقد بدأتم بتعلم الحب ، لذلك ترتشفون الآن المرارة الطافية كالحبب على كأسه» .

ليست هناك امرأة تستطيع مقاومة الرجل الرومانتيكي ، لكن من الصعب على المرأة أن تتفهم الرجل الذي تمتزج رومانسيته بهذا القدر من المثالية .

لقد كان نيتشه يبحث عن امرأة مثال وكأنه نحات إغريقي يصب كل مشاعره وفلسفته حول وعن الجمال ، في الحجر الذي يصنع منه تمثالاً للنموذج الأنثوي الأكمل والأعلى .

لقد كان نيتشه ككل الغارقين في رومانسيتهم ومثاليتهم ، يبحث عن صورته في الأنثى التي ينشد . ولكن هل يمكن أن يسمّى هذا حباً أم تعلقاً مرضياً . .؟ وهل يمكن أن يصل المرء إلى هذا القدر من التعلق المرضي بالوهم إلا إذا كان معدوماً من التجربة وخالياً من الخبرة المباشرة؟

نيتشه كان يبحث عن امرأة من فصيلة الآلهة ، وإذا كانت هذه الفصيلة غير موجودة بين البشر فمن الطبيعي أن يحس ذلك الحالم بخيبة الأمل والخذلان . ألم تر كيف كان نيتشه يتحدث من خلال إحدى عباراته عن الزواج ، كيف يحتقر ممارسة الحب وكأنها خطيئة مصوراً إياها «بالتفاهم بين إحساس حيوانين»؟ !

رجل كهذا لا يمكن أن يكون قد خاض تجربة حب حقيقية وكاملة ، وإلا لما تحدث عن ممارسة الحب التي تختلف كلياً عن

الجنس الخالص ، هذا إن كان هناك ما يمكن أن نطلق عليه جنساً خالصاً ، بهذا القدر من الرومانسية الساذجة التي تشبه أحاسيس المراهقين الذين ينظرون إلى الجنس باعتباره تجسيداً حياً لدونية الإنسان !

***

زوربا رغم كل حبه للمرأة ورومانتيكيته لم يكن رومانسياً على طريقة نيتشه الذي هاجم المرأة في المسيح وهاجم المسيح في المرأة .

زوربا الذي أنضجته التجربة ، نفذ إلى عمق هذه الروحية الأنثوية التي بثها المسيح في نسيج الحضارة الإنسانية المكتوبة لأول مرة .

ولأنه نفذ إلى عمق هذه الروحية ، فإن تفاعله مع ضعف المرأة لم يتوقف عند حدود التعاطف والإشفاق ، بل تجاوزه إلى مرحلة التقدير والإكبار .

انظر إلى زوربا هنا وهو يختم لصديقه الكاتب قصته مع عشيقته الروسية نوسا التي هجرته لتهرب مع شاب وسيم :

«لماذا أكرهها وأحقد عليها؟ فالمرأة بشكل عام ، لا يستطيع أن يدرك سرها أحد ، وجميع القوانين المشرعة لا تنظر إلى المرأة بعين الاعتبار . لو قدر لي أن أقرر القوانين ، لكنت قررت عشرات ومئات منها للرجل ، لأنه يملك القدرة على تحملها . . أما النساء فهن مخلوقات ضعيفة ، كم مرة يجب أن أكرر هذا . نخب نوسا . وليسلط الله على رؤوسنا الرصاص ليهلكنا نحن الرجال» .

عندما يصف زوربا المرأة بأنها ضعيفة أو مسكينة ، فإنه لا يقصد أن يستدعي مشاعر الشفقة المتعالية في نفس مستمعه ، ولكنه يشير إلى ما تتميز به المرأة من سمات إنسانية تجعلها جديرة بالتعاطف .

إن زوربا يعاني ضعفاً لا يمكن مغالبته تجاه كل مظاهر الضعف والرقة اللذين يمثلهم الجزء الأنثوي في الإنسان ، خير تمثيل .

زوربا يحب الحياة وينظر إليها رغم كل شيء بوصفها هبة . . ولذلك فهو يشعر بالشفقة تجاه كل مظاهر الضعف التي تكشف كما لا يستطيع غيرها ، توق الإنسان إلى البقاء وفزعه الشديد من فكرة الفناء .

الشغف سمة إنسانية تستحق التقدير ، لأنها منبع كل قيم الحياة الأصيلة ومصدر كل مظاهر الدفء في حياة الإنسان .

الضعف وليد الحب والتعلق والتوق . . ولولا الحب والتعلق والتوق ، لما امتلك الإنسان القدرة على الاستمرار في وجود يعصف الألم بجميع جهاته . من هنا تبرز قوة الضعف الناتج عن التعلق ، كغريزة أساسية يكتسب الإنسان منها الألم تماماً كما يستمد منها القدرة على مواجهة هذا الألم والاستمرار في الحياة بوقاحة إيجابية تستحق كل التقدير .

* * *

ضعف نيتشه تجاه المرأة ألهمه الابتعاد عن جنتها بعد أن أقنع نفسه بأن المرأة كائن دوني .

لم يكن احتقار نيتشه للمرأة هو ما دفعه إلى نبذها ولكن ضعفه تجاهها . إنه كان يخشى نفسه أكثر مما يخشاها هي ، وكان يخشى ضعفه تجاهها أكثر مما يخشاها هي . وهكذا راح نيتشه يسخر كل عبقريته لإقناع نفسه قبل الآخرين ، بأن النساء شر محض . إنها حيلة دفاعية يلجأ إليها كل من يخشى من نفسه وكل من يخشى عليها إذا ما تعلقت بحد الوله بشيء أو بشخص أو بشهوة .

تأمل السطور التالية التي يتحدث فيها نيتشه عن دونية المرأة عبر الباب الذي أطلق عليه (الصداقة) ، وكأنه يحاول إيجاد أسباب لتبرير زهده أو بالأحرى ضعفه المكابر :

«المرأة ليست أهلاً للصداقة ، فالمرأة لا تعرف غير الحب» .

طماع هو نيتشه كالمرابين ونزق كالأطفال . إنه يطالب المرأة بكل شيء من دون أن يتساءل عمّا يمكن أن يقدمه هو إليها .

في السطور التالية يستطرد نيتشه في وصف المرأة عبر الفصل نفسه :

«إن حب المرأة ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لا تحب ، وإذا ما اشتغل بالحب قلبها فإن أنواره معرضة أبداً لخطف البروق في الظلام» .

ألم يكن نيتشه يشكو من حيث لا يدري ، المرأة الأولى التي أحبها والتي آثرت الزواج من غيره؟

إذا لم يكن نيتشه يعكس عبر السطور التالية ومن دون أن يشعر ، فشل تجربته ومدى ما تركته فيه من أعطاب لم يستطع مداواتها ، فلماذا إذن كان يشكو تعسف المرأة وعمايتها تجاه من لا تحب؟ !

إن هذا هو السبب في أن نيتشه لم يكن يبدي أي ثقة في حب المرأة التي قصر فضائلها عليه . إنه ببساطة لم يستطع أن يتجاوز فشله في الحب بل وحمل الطرف الآخر كل المسؤولية في هذا الفشل ، فانعكس ذلك على كتاباته التي لا تجارى في التوجس من المرأة .

لقد وصف نيتشه حب المرأة بالعماية تجاه من لا تحب . وهل في هذا الوصف إلا كناية عن جهل حبيبته الأولى بمقدار مشاعره حيالها وعدم استطاعتها تقدير قيمته كشخص متفرد؟

من الواضح أن نيتشه كان يحمّل حبيبته الأولى كل المسؤولية في الفشل الذي منيت به التجربة . وهذه هي إحدى خصائص أصحاب التكوين النفسي الضعيف الذين لا يستطيعون تحمل مسؤوليتهم الشخصية عما يقع لهم من أحداث .

* * *

في المقابل انظر هنا إلى قوة زوربا وجبروته اللذين لم ينل منهما كل ذلك التعلق والشغف بالمرأة .

في السطور التالية يصف زوربا لصديقه الكاتب ما كان يكنّه من مشاعر تجاه نوسا ، تلك المرأة الروسية التي أحبها كما لم يحب غيرها :

«بقيت معها ستة أشهر تقريباً . ومنذ ذلك اليوم . . لم أعد أخاف شيئاً البتة إلا شيئاً واحداً ، هو أن يمحو الله أو الشيطان من مخيلتي تلك الأشهر الستة السعيدة . أتدرك ما أقوله؟» .

وفي الأسطر التالية يصف صديقه الكاتب الحالة التي كان عليها زوربا بعد أن نطق بهذه الكلمات :

«وأقفل زوربا عينيه ، كان يبدو متأثراً جداً ، حالماً بالماضي السعيد فهذه المرة الأولى التي أراه فيها تؤثر به ذكريات يرويها» .

وفي السطور التالية يقص زوربا على صديقه الكاتب كيف خانته حبيبته نوسا :

«في إحدى الليالي عدت إلى المنزل فلم أجدها وعلمت بأنها هربت مع جندي شاب جميل ، وانتهى كل شيء . لقد انشطر قلبي إلى شطرين . ولكنه سرعان ما التحم من جديد ، يا له من خبيث . هل شاهدت قطع القماش البيضاء والصفراء والحمراء التي تصنع منها الأشرعة وتهب عليها العواصف والصواعق من دون أن تؤثر فيها . قلبي الآن فيه الثقوب وآلاف الرقع ، لذلك فأنا لا أخشى شيئاً» .

إنه زوربا . . الرجل الذي يستمد من ضعفه كل ذلك الجبروت الذي يتمثل في القدرة على تجاوز الآلام مهما كان حجمها .

لو لم يكن زوربا يشعر بالضعف الشديد تجاه المرأة ولو لم يكن متصالحاً مع هذا الضعف لما حوله إلى مصدر قوة .

إن هذا الضعف الزوربي تجاه النساء ، هو العامل الأهم في مقاومة زوربا لمظاهر الشيخوخة وفي احتفاظه بالشباب الدائم ، وفي حبه الذي لا حدود له للحياة . بالنسبة إلى زوربا المرأة والحياة وجهان لعملة واحدة ، تماماً كما هي الحال مع الله والشيطان على حد تعبير

زوربا نفسه ، وفيما يتعلق بالمرأة والحياة فإن زوربا على حق تماماً ، إذ إن الحفاظ على النوع ، أو بمعنى آخر الحفاظ على الحياة ، هو فضيلة أنثوية ، بقدر ما تُعتبر الحرب وتبعاتها من قتل وتدمير ، مُنجزاً ذكورياً لا دخل للمرأة فيه إلا باعتبارها حافزاً خارجياً .

عبر هذا المقطع يتحدث زوربا عن المرأة بقسوة ، وكأنه يتحدث عن الحياة أيضاً :

«لقد كان جدي ، رحمه الله ، عليماً بالنساء ، كان يعشقهن كثيراً . فقد خبر منهن الناضجة والفجة وكان دائماً يقول : «اسمع يا زوربا إني أمنحك مع بركتي نصيحة : «لا تضع ثقتك في امرأة ، فعندما قرر الإله أن يخلق حواء من ضلع آدم انقلب الشيطان إلى ثعبان وخطف الضلع ، فأسرع الرب ، إلا أن الشيطان الخبيث تملص من بين يديه ولم يترك إلا قرونه . فقال الرب في نفسه «إن ربة المنزل الحقة إن لم تجد مغزلاً غزلت خيوطها على ملعقة . وهذا ما سأفعله أنا ، فسأخلق المرأة من قرون الشيطان» . . وهكذا خلقها ، ليشقينا يا الكسيس ، إذن فعندما نلمس جسد المرأة من أي مكان ، نكون نلمس الشيطان ذاته . خذ حذرك منهن ، فحواء أيضاً هي التي سرقت تفاح الجنة وأخفته في صدرها . وهكذا فهي تزهو فيه الآن . إنها الطاعون بنفسه ، فلو أكلت يا بنيّ من تلك الثمرات فستموت . وإن لم تأكل ستموت أيضاً . فماذا تريدني أن أنصحك به؟ اعمل ما تريد» .

***

ضعف زوربا تجاه المرأة هو وليد شعور بالحب الشديد لها . . والحب عندما يتجاوز الحد المسموح به والمتعارف عليه كما هي الحال مع زوربا ، فإنه يصل إلى مرحلة التعلق ، ومن ثم العشق .

دوستويفسكي يقول على لسان ديمتري أحد أبطال رواية الأخوة كارامازوف ما معناه إن العشق حالة شعورية عجيبة يمتزج فيها التعلق الشديد بالكراهية . وفي رأيي فإن الكراهية التي تحدث عنها دوستويفسكي ليست أصيلة في تركيبة العاشق ، بقدر ما هي تعبير عن الرفض الذي يحس به العاشق تجاه الواقع الذي لا يسمح له بالوصول إلى حالة اتحاد جسدي تتسم بالاستمرارية مع الحبيب .

الكراهية هنا مجرد تعبير عن هاجس الفقد الذي يعصف بالعاشق . . وهو الهاجس نفسه الذي ينتاب الإنسان تجاه الحياة . . ومن هنا فإنه يتوجب علينا ألا نأخذ على محمل الجد ، عبارات الكراهية التي ينطق بها الإنسان تجاه الحياة . . فحسب رأيي فإن لحظة تعلق الإنسان القصوى بالحياة ، هي تلك التي تشهد أشد مراحل سخطه عليها وتبرمه منها .

في السطور التالية وعبر الباب الذي دعاه بأنشودة أخرى للرقص ، يحاور نيتشه الحياة على لسان زرادشت قائلاً :

«إنني أخشاك قريبة وأحبك بعيدة ، أيتها الحياة ، فيجذبني إعراضك عني ويوقفني إقبالك نحوي ، فأنا معذب وأي عذاب لا أتحمله من أجلك ، أنت المحرقة ببردك ، الساحرة بكيدك ، الجاذبة بإدبارك ، المحيرة بسخريتك» .

وانظر هنا كيف يتحدث نيتشه عن المشاعر المتناقضة التي تثيرها فيه الحياة :

«أي إنسان لا يكرهك ، أيتها الآسرة المغامرة الساحرة التي لا يفوتها مقصد تتجه إليه ، ومن لا يحبك وأنت البريئة الرعناء المسارعة إلى المعصية والإثم وفي عينيك لفتات الأطفال؟

إلى أين تقودينني الآن أيتها الطفلة المهذبة الشاردة؟ أراك تفرين من أمامي حلوة طائشة أيتها الجاحدة الفتية . وها أنذا أتبعك راقصاً حتى إلى المآزق التي لا أعرف لها منفذاً» .

ثم يتابع نيتشه حواره مع الحياة قائلاً :

«لقد انقلبت أفعى ، هذه الساحرة الرشيقة الوثابة الزاحفة ، فلا أدري في أي الأوكار تغلغلت ، بعد أن صفعت وجهي وأبقت عليه طابع يدها الحمراء .

لقد تعبت من رعايتك والسير وراءك ، أيتها الساحرة ، لقد أسمعتك أغاني حتى الآن فلسوف تسمعينني صراخك ، هيا : ارقصي على نقرات سوطي ألهبك به ، فإنني ما نسيت سوطي» .

لكن ألا تشبه مشاعر نيتشه المحمومة والمتناقضة تجاه الحياة ، مشاعر الرجل المحروم تجاه المرأة؟

وهل ينظر الرجل المحروم وغير المحروم أيضاً ، إلى المرأة إلا بوصفها الحياة . . كل الحياة . .؟

في الأسطر التالية ومن خلال الباب الذي سمّاه (أنشودة الفرح) تأمل كيف يناجي نيتشه الحياة أيضاً :

«لقد نظرت يوماً في عينيك ، أيتها الحياة ، فحسبتني هويت إلى غور بعيد القرار . غير أنك سحبتني بشابك من ذهب وأطلقت قهقهة ساخرة عندما قلتُ إن غدرك لا قرار له . وأجبتني : هذا ما تقوله الأسماك جميعها ، فهي إذ تعجز عن سبر الأغوار تحسبها لا قرار لها . وهل أنا إلا المتقلبة النفور؟ وهل أنا إلا امرأة لا فضيلة لها؟ لقد تقوّل الناس كثيراً عن صفاتي ولكنهم أجمعوا على أنني غير المتناهية ، المليئة بالأسرار» .

أعتقد أن مفردة الحياة التي وردت على لسان نيتشه في السطور السابقة كانت إحدى مرادفات مفردة المرأة . . هذا الشوق والحنين والغضب والرفض والقلق والاستلاب والرغبة في الترويض ، هي جزء من أعراض العشق الذي يكنّه الرجل للمرأة . . ولكن المسألة لا تقتصر حسب رأيي على المرأة . . لقد كان نيتشه يعبر عن مشاعره العاصفة والمتناقضة تجاه الحياة فعلاً .

لكن هل هناك فرق حقيقي بين علاقة نيتشه بالمرأة وعلاقته بالحياة . .؟ ألم يكتف نيتشه بالتولّه في حب الاثنتين عن بعد ومن دون أن يلقي بنفسه في أحضانهما . .؟

انظر هنا إلى نيتشه كيف يختم باب أنشودة أخرى للرقص واصفاً الحال التي أنهى من خلالها حواره مع الحياة :

«وتراشقنا النظرات وعدنا نسرحها على المروج الخضراء وقد دغدغها نسيم المساء البليل وانخرطنا كلانا بالبكاء . . وعندئذ شعرت أن الحياة أعز علي من حكمتي» .

ليست الحكمة شيئاً منفصلاً عن الحياة ، وإذا كان نيتشه قد قال بأن الحياة أعز عليه من حكمته فإنه أقر بأن حكمته ليست من الحياة في شيء ، بل إنه قد صوّر الحكمة باعتبارها نقيضاً أو خصماً للحياة .

لقد كانت عبقرية نيتشه التي أطلق عليها وصف حكمة ، تسير في اتجاه مضاد لتيار الحياة . . بينما لا تنمو الحكمة وتزهر وتتوهج إلا تحت أشعة شمس الحياة ، لأن الحكمة جزء من الحياة لا يصل إليه المرء إلا عبر الخبرة العميقة المباشرة لا عن طريق التأمل من الأبراج العاجية حيث يحاول المرء أن يخضع قوانين الحياة لمقتضيات فكره بدلاً من أن ينفذ بفكره وروحه إلى أعماق الحياة .

الحكمة نوع من المعرفة الخالصة التي لا يتوصل إليها المرء عبر وعيه فقط . . وعبقرية نيتشه كانت عبقرية عقل تعاظم وتطاول وبلغ ما لم يبلغه غيره من العقول . . لكن هذا العقل لم يستطع أن يصل إلى الحكمة .

***

زوربا كان حكيماً ولم يكن عبقرياً فقط مثل نيتشه . . فحكمة زوربا هي ابنة الحياة ، وليست دخيلة عليها .

زوربا لم يكن يواجه أي مشكلة مع المرأة لأنه لم يطمح يوماً في إصلاح العالم وتغيير قوانين الحياة .

وعندما ساق زوربا قصته مع جده التي حذره فيها من النساء ، فإنه لم يكن يعبر عن مشاعر ذكورة تقليدية ، إنما كان يعبر عن

نفسه في لحظة تبرم مغلّف بالعشق . . صحيح إن العقلية الذكورية تستخدم المفردات نفسها عند الحديث عن المرأة ، لكن الدافع الذكوري الذي يقف وراء هذه المفردات ينطلق دوماً وأبداً ، من تلك الرغبة في السيطرة على المرأة ، ومن ذلك الحرص على امتلاكها .

وزوربا في المقابل ، لا يسعى إلى امتلاك المرأة ، ولكنه لا يطيق فكرة الانفصال عنها والخروج من جنتها .إنها هي المرأة وحدها ، التي تربط زوربا بالحياة وتشدّه إلى التمسك بحبالها :

«لقد أخبرتك هذا سابقاً : إن لكل إنسان جنته الخاصة ، إن جنتك ستكون مكدسة بالكتب وزجاجات الحبر الكبيرة ، وبالنسبة إلى إنسان آخر ستكون ملأى ببراميل النبيذ والخمر . وبالنسبة إلى آخر ملأى بالجنيهات المكدسة . أما جنتي أنا فهي هذا : غرفة صغيرة تفوح منها الروائح العطرية ، وتغطي جدرانها الفساتين المزركشة ، والصابون وسرير كبير ، وبجانبي فتاة دافئة» .

نعم يا زوربا . . فإذا كانت الحياة أنثى كما تعتقد ، فإن الجنة لا بد وأن تكون كذلك أيضاً .

الفصل الثامن
غريزة البحث عن الخطر

زوربا الذي يعشق النساء بالدرجة نفسها التي يعشق بها الحياة ، يصرح عبر أكثر من موضع في الرواية ، بأنه لا يفهمهن . . وكأنه يصرح في الوقت نفسه بأنه لا يفهم الحياة : «يا لهذا اللغز المحير ! ما سر المرأة . . لماذا تدير رؤوسنا؟ هيا أخبرني . . إني أسألك ما معنى هذا؟» .

الفهم ليس شرطاً من شروط الحب ، والتعلق في معظم الأحيان لا يرتبط بأسباب منطقية . الحب الجارف يبرر نفسه ، لكن الرغبة في الفهم تظل أمراً مرغوباً ومشروعاً للعاشق . . ومن هنا ينشأ العذاب الذي يعبر عن نفسه من خلال الحيرة الشديدة . . كيف يمكن أن نعشق شيئاً ما إلى درجة الجنون ، من دون أن تكون لدينا القدرة على فهمه؟

لكن ألا تعتبر حالة الغموض التي تحيط بالكائن الإنساني المسمى بالمرأة ، حافزاً يساعد على التوله في عشقها . .؟

يقول نيتشه من خلال الباب الذي أطلق عليه (الشيخة والفتاة) :

«كل ما في المرأة لغز» .

المرأة لغز ، والرجل المفعم بالحياة يجد في المغامرة سبيلاً لتحقيق الذات . . واقتحام عالم الألغاز ومحاولة فك طلاسمه وحلّ عقده ، هو مغامرة تحتوي على كل ما يحتوي عليه الخطر من إثارة وتشويق ولذة تصل إلى مرحلة النشوة التي يبلغها المغامر عندما يعود من حافة الموت إلى ضجيج الحياة مرة أخرى ، وكأنه يحس بهذا الضجيج للمرة الأولى في حياته .

هذا الإحساس بالصلابة والقدرة والقوة ، هو الذي يدفع بالمغامر إلى اللعب مع الخطر ، لأنه يعلم أن النشوة ستكون الجائزة التي تنتظره عند الرجوع من حافة الموت . . ومن لا يصل إلى حافة الموت ، لا يمكنه أن يصل إلى الحياة في أعمق مستوياتها . . . هذه هي حالة النشوة القصوى . . والنشوة إدمان لا يمكن الإقلاع عنه .

يقول نيتشه عن المغامرة وعن النشوة التي تصاحبها :

«إذا كنت أحببت البحر وكل ما يشبه البحر ، وما اشتد هيامي به إلا عند مقاومته لي بزوابعه ، وإذا كنت أحمل في نفسي غبطة المستكشف ، الغبطة التي تدفع بالشراع إلى المجاهل وتملأ رواد البحر حبوراً ، وإذا كنت قد صرخت في حبوري أن قد توارت آخر الشواطئ عن عياني ، فتحطمت بتواريها آخر حلقة من قيودي . فها أنذا الآن في وسط المدى الفسيح الصاخب بعيداً عن توالي الأمكنة والأزمان ، فهيا بنا ، يا قلبي الهرم ، إلى الأمام» .

لكن نيتشه لم يبحر في خضم المغامرة إلا بعقله وبقلبه . . لقد هدم كل شيء وعاد إلى نقطة الصفر وشيّد بنياناً من العدم . . لكنه فعل كل ذلك بعقله وشعوره فقط . . أي وهو يجلس في مكانه . . صحيح أن ما فعله نيتشه لم يكن سهلاً وصحيح أن الضريبة التي دفعها مقابل ذلك لا يقوى على دفعها إلا الجبابرة من الناس ، إلا أن مغامرته كانت مغامرة فكر ظل معزولاً عن الخبرة المباشرة .

إن الخروج إلى العراء الفكري الذي مارسه نيتشه لم يكن بالأمر السهل أبداً وربما فإن ما فعله نيتشه على هذا الصعيد لم يستطع أن يفعله أحد من المفكرين أو الفلاسفة أو المبدعين ، إلا أن زوربا قد فعل هو الآخر ما فعله نيتشه من دون أن يلجأ إلى الاستعانة بعالم الأوراق .

لم تعد المغامرة نيتشه إلى مرحلة الحدس والغرائز الأساسية لأنها كانت مغامرة فكرية وفكرية فقط ، على العكس من زوربا تماماً .

المغامرة الحقيقية حالة مفتوحة على كل الاحتمالات ، السعيدة منها والحزينة . . إنها الحالة التي تتخلى فيها لغة الأرقام والحسابات والمنطق ، عن كل سلطان لها . هكذا يذهب الإنسان إلى آفاق المغامرة عارياً ، لا يحمل شيئاً من معارفه وعلومه ونظرياته المجردة . . إنه يذهب إلى تلك الأراضي المجهولة ، لا يحمل شيئاً سوى جسارته ولا يعتمد على شيء سوى حدسه . .

إنها رحلة إياب إلى مرحلة الغرائز الأساسية ، وبقدر ما ينجح الإنسان في تنقية حواسه واستعادة فاعلية حدسه ، بقدر ما تكتب له السلامة في نهاية رحلته صوب المجهول . . ذلك الكهف البعيد الذي يلزمنا أن نتخذ من الجرأة الحمقاء بوصلة تهدينا إليه وخريطة تدلنا على طريقه الوعر .

في المقطع التالي يضبط زوربا صديقه الكاتب متلبساً بإجراء عمليات حسابية وهو يجلس قبالة البحر :

«ما أخذك إلى الشاطئ لتقوم بتلك الحسابات ، بحق الشيطان؟ أرجو المعذرة ، أيها الرئيس ، لسؤالي هذا ، ولكني لا أفهم ، فعندما أضطر إلى مقارعة الأرقام ، أشعر بأني بحاجة إلى أن أحشر نفسي في جوف الأرض ، كي لا أستطيع مشاهدة أحد . فإذا رفعت نظري ورأيت البحر ، أو شجرة ، أو امرأة ، حتى ولو كانت عجوزاً ، عند ذلك تطير جميع هذه الأرقام ، وسأضطر إلى مطاردتها» .

هذا هو المغامر الحقيقي . . زوربا كان يعود في الوقت المناسب تماماً إلى مرحلة إلغاء العقل واعتماد الحدس والغرائز الأساسية كبدائل . إنه يجلس قبالة البحر لا ليعمل فكره ، وهو عندما يشاهد شجرة أو امرأة ما حتى ولو كانت عجوزاً ، فإن عقله يتوقف عن العمل . . ففي حضن الحياة لا يجوز للعقل أن يعمل ولو بأبسط طاقاته ، إنه وقت للمتعة والدهشة النقية الخالية من أي شوائب للفكر . . إنه وقت للحياة وليس وقتاً لإعمال الفكر أبداً .

نعم أيها المغامر زوربا . . فحيث يوجد البحر والمرأة والحياة وكل الألغاز الأخرى التي تذهلنا وتسحرنا وتوصلنا إلى حافة السكر لكي نستمر في ممارسة اللعبة من دون اهتمام بنهايتها المأساوية ، لا يمكن أن تتعايش مع لغة الأرقام الباردة المجردة .

حيث تكون هناك ألغاز ، تكون أسمى أنواع المغامرة التي يضطلع الحدس فيها بالدور الرئيس . . وحيث تكون هناك مغامرة ، تكون الحياة . . وحيث تكون ثمة حياة ، يتراجع العقل من ميدان المعركة ضامّاً إلى فلوله ، كل قوانين المنطق وكل أبجديات الحساب .

في المغامرة كما في لعبة الحفاظ على البقاء ، لا مكان سوى للغريزة الذكية التي توظف اندفاعاتها بدقة وتلقائية ، بغية الوصول إلى أهدافها الحيوية . . وأقول أهدافاً حيوية لأنها غير ثابتة وغير نهائية وغير محسوبة . . وقبل كل ذلك فإن نتائج الوصول إليها لا تشكل أي اعتبار لدى المغامر المندفع الذي لا يهتم في الغالب لما قد يكتنف الوصول إلى أهدافه من أخطار ، ولا يبالي بما قد يكون مختبئاً وراء غاياته . في حين أن النتائج تحتل الأهمية القصوى في علم الحساب ، إذ يتحول ناتج أي عملية حسابية إلى غاية نهائية تبرر إجراءها :

«عندما أصل إلى أخطر الجبال أرخي العنان . فحياة الإنسان مليئة بالمرتفعات والوديان . والمفكرون يقتربون وأيديهم على العنان ، أما أنا أيها الرئيس ، وهذا ما يجعلني ذا قيمة ، فقد رميت بالعنان من مدة طويلة ، لأن الصدمات لا ترعبني . العمال يعتبرون أن الخروج

عن الخط الحديدي اصطداماً ، أما أنا ، فلتعلق مشنقتي إن كنت أعتبر الاصطدامات التي أقوم بها حتى وأنا في كامل انتباهي . فبكل مكان لي ذكرى . وأفعل ما أريد ولا يهمني إن مت . فما الذي أخشى أن يضيع؟ لا شيء . وعلى كل ، فلو عشت سنيناً طويلة ففي النهاية سوف أموت ، وهذا ثابت ، إذن فلتذهب الأيام إلى الجحيم» .

المغامرة واللغز لا يختلفان . . الاثنان يستمدان جاذبيتهما من رغبة الإنسان في اكتشاف المجهول . . ولذلك فإن كل مغامرة تظل في حقيقتها لغزاً ، وكل لغز يظل في حقيقته مغامرة .

ولغز المرأة لا يختلف في غموضه وإثارته وجاذبيته وغرائبيته ، عن لغز الحياة والمغامرة التي يحتوي عليها هذا اللغز .

ورغم أن المرأة كائن إنساني مثلها مثل الرجل ، فإن بها من الغموض ما يستحيل على الرجل جلاءه . . وكلما ازدادت حالة الغموض وعدم الفهم ، كلما ازداد تعلق الرجل بهذا اللغز الذي يلف المرأة ويغلفها ، ويجبلها بطابعه .

دوافع السلوك لدى المرأة كانت بالنسبة إلى زوربا هي أحد مفاتيح اللغز . . وهي دوافع تختلف تماماً عن دوافع الرجل الذي صنع التاريخ والحضارة .

انظر هنا إلى هذا الحوار بين زوربا وصديقه الكاتب ، حيث يلقي الأول الضوء على واحد من أهم قوانين الوجود التي تنفذ إلى عمق الدوافع السلوكية التي يتحرك الجنسان ، الذكور والإناث ، بوحي منها :

«ماذا تنتظر من النساء؟ أن يحاولن إنجاب الأطفال من أول رجل يصادفنه ، وما الذي تنتظره من الرجال؟ أن يقعوا في الفخ . علّم على كلامي أيها الرئيس» .

ونيتشه من خلال الفصل الذي أطلق عليه (الشيخة والفتاة) يصادق على كلام زوربا ولكن بلهجة تطغى عليها نبرة التعالي والاحتقار :

«كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد وهو كلمة (الحبل) .

ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة ، أما غايتها فهي الولد ، ولكن ما تكون المرأة للرجل يا ترى؟ إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين : المخاطرة واللعب ، وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة ، فهي أخطر الألعاب» .

لكن لماذا يا ترى لم يسع نيتشه وراء المخاطرة واللعب بالرغم من أنه كان رجلاً حقيقياً؟

إنه الألم الذي خلفته تجربة الحب الأولى الفاشلة ، وربما تكون هذه التجربة وما صاحبها من ألم لا يطاق دفع بصاحبه إلى تناول كمية كبيرة من الأدوية سعياً للانتحار ، هي إحدى أهم الأسباب في طلب نيتشه للارتقاء وسعيه لتحقيق الألوهية .

بالتأكيد إن نيتشه النبيل لم يكن ليغتفر لنفسه أن يقع مرة ثانية في الذلة التي تبقى احتمالاً وراد التحقيق في كل تجربة عميقة ، لذلك طالب نيتشه نفسه بالتعالي فوق رغباته البشرية ، وهذا يعني أن

دعوة نيتشه إلى خلق السوبرمان كانت على الأقل في جزء منها ، تعبيراً عن الكبرياء الذي ضاع أثناء تجربته العاطفية الأولى .

* * *

الرجل الذي صنع الحضارة والتاريخ لا يمكن أن يتفهم تركيبة الأنثى التي تنصرف جهودها في الأساس ، إلى مهمة حفظ النوع . ربما لأن الرجل الذي صنع الحضارة والتاريخ ، لم يطرح على نفسه أخطر الأسئلة التي تتعلق بالوجود : كيف يمكن الحفاظ على الحضارة والإنسان والحياة ، من دون وجود من يهتم بأداء أخطر مهمة يمكن أن توكل إلى كائن حي ، وأعني بها : الحفاظ على النوع؟

نعم . . الرجل يسقط في الفخ بسرعة لأنه أكثر ضعفاً ، والمرأة تنصب له الفخاخ وتنجح في إيقاعه دوماً ، لأنها تفهم تركيبته أكثر بكثير مما يفهم هو تركيبتها . قد يكون الرجل أكثر ذكاءً من المرأة ، لكن مما لا شك فيه أن المرأة أكثر حكمة وحنكة منه . . وقد يكون الرجل أكثر إبداعاً من المرأة ، لكن مما لا شك فيه أن المرأة أقدر على فهم الواقع والتعامل معه ، منه .

المرأة كائن غريزي بطبيعته ، ولذلك تعلّق المرأة على حدسها أهمية أكبر مما تعلقه على المنطق وباقي أدوات الوعي الأخرى . . وإذا كان للغريزة عبقرية فهي تتجلى في المرأة التي ، حتى وإن نجحت في تحصيل أكبر قدر ممكن من المعارف العقلية ، فإن دوافعها السلوكية تظل مرتبطة بالغريزة ومستمدة من الحدس ، أكثر من العقل .

الرجل كائن عقلي أكثر من كونه كائناً غريزياً . . لقد تشبّث الرجل بالعقل ليعوض نقص الفاعلية الذي يعاني منه على صعيد الغريزة التي تنتج معارفها اللازمة من دون الحاجة إلى الاستعانة بالوعي وأدواته .

والمعارف الغريزية ، إن جاز التعبير ، تظل مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالضرورة ، لا بالرفاهية . . فالغريزة لا أي شيء آخر ، هي التي تدق أجراس التحذير لتنبهنا إلى وجود الخطر ، وهي التي نستلهمها لتمدنا بالأسباب والوسائل التي تعيننا على مواجهة هذا الخطر .

في هذا السياق يورد الفيلسوف الألماني شوبنهاور عبر كتابه «العالم كإرادة» ، واقعة حقيقية للتدليل على مدى فاعلية ما يسميه بإرادة الحياة التي لا ترتبط بالوعي بأي شكل من الأشكال :

«إن البراعة العجيبة في الحيوان تظهر لنا بوضوح كيف أن الإرادة أسبق من العقل ، انظر إلى ذلك الفيل الذي سيق إلى أوروبا وعبر وهو في طريقه مئات من الجسور ، كيف رفض عبور جسر ضعيف على الرغم من أنه رأى كثيراً من الجياد والناس يعبرونه . من هنا يتضح لنا أن هذا العمل غريزي ، وليس نتيجة لمنطق أو تفكير ، إنه ليس تعبيراً عن العقل بل الإرادة» .

وزوربا يعرف أن فاعلية الغريزة عند المرأة ، هي نفسها عند الحيوان :

«إن هؤلاء النساء الساقطات ، لهن أنوف رطبة ، كالكلاب ، فهن يعرفن بسرعة رائحة الرجل الذي يرغبنه والذي لا يرغبنه .

لهذا فقد كنت دائماً ، وفي كل مدينة ألقي فيها رحالي ، أجد امرأتين أو ثلاث يتتبعن أثري ، على الرغم من أنني شخت ولا أعتني بثيابي ، يا لهؤلاء الساقطات . . . ليباركهن الله» .

الرجل تنقصه عبقرية الغريزة التي تتمتع بها المرأة . . ومن نتائج ذلك عدم قدرة الرجل على استشعار الخطر ومواجهته كما هي الحال عند المرأة ، إلا إذا كان لدى هذا الرجل غريزة أنثوية تستطيع أن تنفذ إلى قوانين الأشياء من دون الاستعانة بالوسائل العقلية . وزوربا الذي كان ملتصقاً بالطبيعة وعاشقاً لها ، كان يملك هذا الغريزة الأنثوية التي تستشعر الخطر .

عبر المقطع التالي يصف صديقه الكاتب صاحب منجم الفحم ، هذه الواقعة المثيرة : «حانت مني لفتة نحو ساعتي التي كانت تشير إلى العاشرة فقلت للعمال :

– هيا لقد حان وقت الإفطار . . أو بالأحرى . . لقد تأخرتم قليلاً .

وخلال لحظة واحدة رمى العمال جميع أدواتهم في إحدى زوايا النفق . ومسحوا العرق عند جبهاتهم . وجهزوا أنفسهم للخروج من النفق . إلا أن زوربا بدا كأنه لم يسمع ما قلته ، أو لم يود السماع . وفجأة عاد ليصغي كأنه يسمع صوتاً بعيداً . وعاد القلق يرتسم على محياه . فأشرت للعمال لينتظروا . وناولت كلاً منهم سيجارة . ووضعت يدي في جيوبي . وفجأة قفز زوربا ووضع أذنه على حائط النفق ، وعلى ضوء القنديل شاهدت شفتيه مفتوحتين برعب . فهالني منظره فصرخت به :

- ما الذي يجري يا زوربا؟

ولكن في تلك البرهة خيل إلينا أن الأرض ستنطبق علينا ، فصاح زوربا بصوت مخيف :

- اهربوا . . اهربوا .

تراكضنا نحو المخرج . إلا أننا ما إن اقتربنا من الدعامة الأولى حتى سمعنا صوت صرصرة أسرع وأقوى . في هذا القوت كان زوربا قد تناول غصن شجرة ضخم ليسند به الدعامة المتخاذلة . ليته يستطيع أن يقوم بذلك . فهذا سيمنحنا الوقت الكافي للخروج من النفق .

وعلت صرخة زوربا الثانية . إلا أنها كانت محذرة كأنها خرجت من أعماق الأرض .

- أسرعوا بالهرب .

واستجبنا لطلبه ، يتملكنا الخوف الذي يتملك الرجال في مثل هذه المواقف . ومن دون أن نلتفت إلى زوربا . ولكن بعد أن خرجنا ، تنبهت فجأة ، فزوربا لا يزال داخل النفق . وصرخت جزعاً :

- زوربا . . زوربا .

بذلت أقصى جهدي ليكون صوتي عالياً ليسمعه ، إلا أنني علمت بعد ذلك بأن صوتي لم يتعد أوتار حنجرتي ، فالرعب كان قد أفطسه .

تملكني الخجل . وقفزت نحوه وذراعاي ممدودتان . في هذا الوقت كان زوربا قد انتهى من تثبيت الدعامة الكبيرة ويدأ بالركض

عبر النفق إلى المخرج ، وبسبب سرعته في الظلمة واندفاعه خارجاً ، ومن دون شعور منا سقط كل منا بين ذراعي الآخر .

وصرخ بي :

- يجب أن نخرج . . . اخرج .

وبدأنا الركض حتى وصلنا إلى النور . وتناهى لمسامعنا صوت الصرير الثالث ، إلا أنه كان أعلى هذه المرة ، كأنه صوت شجرة في العاصفة . وفجأة علا صوت مزمجر كأنه البرق جعل الجبل يهتز من الداخل ، وانهار النفق» .

لكن كيف كان زوربا يفهم لغة الأشياء التي لا لغة لها . .؟ كيف كان يدرك أسرارها وكأنها قد باحت له بها . .؟ في المقطع التالي يصف صديقه الكاتب ، كيف كان زوربا يتعامل مع كل شيء وكأن له روحاً :

«إن الأرض تعود للحياة بين ذراعيه . والأحجار ، الفحم ، الخشب والعمال ، كلهم يسيرون على نغماته . وتستعر الحرب داخل الأنفاق على ضوء مصباح الغاز الأبيض ، زوربا في المقدمة يحارب بكل أعضائه . فهو يمنح اسماً لكل نفق ، وبهذا يمنح وجهاً للأشياء التي ليس لها وجه . عندها يجد أن من السهل جداً أن يلحق به . فقد كان يقول : «عندما أعرف بأن هذا هو نفق (كانافارو) ، وهكذا سمّى النفق الأول ، فأنا أصبح واثقاً ولا يستطيع أن يخدعني . وكذلك باقي الأنفاق ، (الأم القوية) و(السيقان المعوجة) . إنني اعرفهم جميعاً فأين سيختفون؟» .

لقد كان زوربا يخلع على الأشياء أسماءً لتغدو مفهومة لديه . . إنه يؤنسن الأشياء ويمنح وجوهاً لما ليس له وجوه على حد تعبير الكاتب ، وهذه خاصية أنثوية بحتة . . فالإناث يملن إلى إلحاق الأشياء بعالم الذوات ، في حين يميل الذكور إلى إلحاق الذوات بعالم الأشياء . . حتى على مستوى الطفولة ، فإن الأنثى تميل بطبعها إلى اللعب بالدُّمى حيث تستطيع الطفلة أن تسمي دميتها وتتعامل معها وكأنها ذات بشرية . . في حين يميل الطفل الذكر إلى اللعب بالأشياء التي تضعه في أجواء يسيطر عليها الخيال الجامح ، فيتصور نفسه مرة جندياً في معركة ، ومرة أخرى شرطياً يواجه عصابات المجرمين والأشرار . . وهكذا دواليك .

خلع الذوات على الأشياء هو إحدى تجليات غريزة الأمومة ، فهذا الارتباط العاطفي بين الأنثى والشيء هو نواة الارتباط الأسمى بين الأنثى وبين جنينها ثم طفلها . إنها عبقرية الغريزة التي يفتقر إليها الرجل .

الرجل بدوره استعاض عن عبقرية الغريزة بعبقرية الإبداع . . والإبداع رغم دوره العظيم في تاريخ البشرية ومساهماته الجليلة في تقدمها ، كان تجسيداً للرفاهية العقلية التي يلجأ إليها الرجل ليخلق عالماً بديلاً عن العالم الذي تفصله عنه هوة سحيقة لا تستطيع أن تردمها سوى الغريزة .

الحياة في حقيقتها مرتبطة بالغريزة لا بالعقل ، والغريزة ليست مرتبطة بالرجل بقدر ما هي مرتبطة بالمرأة التي خبرت معنى منح

الحياة للآخرين ومن ثم إمدادها بأسباب الاستمرارية ، بعد أن تكون قد خبرت كيف تتخلّق الحياة داخل أحشائها على مدى تسعة أشهر .

الرجل غير قادر بطبيعته على النفاذ إلى الوجود بهذا العمق ، ولذلك فهو يستجيب لملكة الخيال التي تقوده لاختراع أوهام البطولة ، والحرية ، والأيديولوجيا ، والوطن . . وباقي المثاليات التي اخترعها ليداري عجزه عن التكيف مع الواقع .

المرأة كائن يوظف خياله في خدمة غريزته ، بينما يوظف الرجل حياته في خدمة خيالاته التي تطمح إلى ترويض الواقع الذي لا يعجبه . انظر إلى عالم الأديان ، هل تجد نبيّة واحدة أو حتى ملحدة واحدة ذات شأن . .؟ المرأة مشغولة بإنتاج الحياة ورعايتها ، لا بفلسفتها والتعامل معها بوصفها موضوعاً يمكن النظر إليه والفصل في أمره استناداً إلى العقل .

نيتشه الذي بلغ في رفضه العالم حداً لم يقترب منه أي فيلسوف أو كاتب أو شاعر من قبل ، استطاع أن يشحن الفلسفة بكل خصائص الخيال . . وهكذا فقد جاءت كتاباته كتتويج لهذا الاقتران العجيب بين الخيال والمنطق ، أو بمعنى آخر : بين الشعر والفلسفة .

وفي هذه الناحية فإن نيتشه كان ، أكبر تجسيداً للإبداع في تاريخ الرجل . . وهو ما جعله أيضاً ، أكبر تجسيداً لخيبة الإنسان في مقارعة الواقع .

لقد كانت فلسفة نيتشه الغارقة في التمرد ، عنواناً لمدى عبثية المسعى الإنساني . . أو بالأصح : المسعى الذكوري في التاريخ .

في إنجيله المسمى بـ«هكذا تكلم زرادشت» يتحدث نيتشه عن الخيال ، باعث المستقبل وملهم المبدعين ، بلهجة يطغى عليها التقديس :

«إن الخيال الذي يعدو أمامك يا صديقي ، لهو أجمل منك ، فلم لا تعيره لحمك وعظمك؟» .

زوربا كان يختلف عن نيتشه في ذلك ، فزروبا كان نبي الغريزة إن صح التعبير . . والغريزة قد يحفزها الخيال ، لكنه أبداً لا يصنعها ، على العكس من الأفكار المثالية التي ارتهنت إلى الخيال بالكامل .

استمع هنا إلى زوربا وهو يوبّخ صديقه الكاتب لأنه يمتنع عن تلبية نداء الغريزة الوحشي الذي يعربد بداخله :

«لا تنتبه إلى ما يقوله رجال الدين ، فليس هناك أي فردوس آخر» .

وفي المقطع التالي يحرض زوربا صديقه الكاتب على الخروج من أسر الخيال الذي أنتج أوهاماً استخدمت بكل مهارة ، جميع أدوات العقل . إنه يحرضه لاستغلال فرصة إعجابه بالأرملة ، وإعجاب الأرملة به :

«اترك جميع الحسابات ، وابتعد عن كل الأرقام ، وحطم الميزان اللعين الذي تقيس به تصرفاتك ، فالفرصة قد سنحت لك لتكسب نفسك أو تفقدها» .

لكن نبي الغريزة زوربا ، رجل في النهاية . وككل الرجال الذين يتلقون هبة الحياة بمزيج من الدهشة والرغبة التي لا يمكن تلبيتها ، في الفهم والاكتشاف ، يستحيل تعلق زوربا بالحياة إلى قلق يمكن أن يقضي عليه فيما لو فشل في إيجاد متنفس مناسب له .

زوربا وجد ضالته في الخلق . . والخلق أو بمعنى آخر الإبداع ، هو البديل الذكوري عن امتياز الحمل والولادة الذي تحتكره المرأة .

وبقدر ما يعتبر امتياز الولادة ضرورياً ، بقدر ما يعتبر امتياز الخلق نوعاً من أنواع الرفاهية . . لكن ما حيلة الرجل الذي حرمته الطبيعة من التحلي بالامتيازات المرتبطة بالضرورة . .؟ هل لديه من سبيل آخر غير الإيمان بالله الذي احتكرته الضمائر المذكرة في جميع لغات العالم ، وألحقته بشكل من الأشكال ، بفصيلة الرجال . .؟ هل له أن يقاوم وهم الوصول إلى مرتبة الكمال عبر ممارسة الخلق ، في فعل محاكاة صريح لقدرة الله . . أو الرجل الأكمل كما يتصوره بعض المتدينين . .؟

انظر هنا إلى هذا الحوار بين زوربا وصديقه في أول لقاء جمع بينهما :

«- ماذا جرى لإصبعك يا زوربا؟

- لا شيء .

- هل قطعته بآلة حادة؟

- وما شأن الآلة في الموضوع ، لقد قطعته بنفسي .

- بنفسك؟ ! ولماذا؟

- أنت لا يمكنك الفهم ، أيها الرئيس ، لقد سبق وأخبرتك أنني قمت بأعمال عديدة . وفي إحدى المرات عملت في صناعة الفخار ، وقد أحببت هذا العمل لدرجة الجنون . هل يمكنك أن تتصور ماذا يعني أن تأخذ حفنة من الطين وتعمل منها ما تريد؟ فرر ! ثم تدوّر الدولاب ويدور الطين معه بينما تقول في نفسك : سأصنع جرة ، سأصنع صحناً ، سأصنع قنديلاً ، والشيطان يعلم ماذا أيضاً ! هذا ما تقوله عن كونك رجلاً : الحرية !

- حسناً ، ولكن إصبعك؟

- لقد كانت تزعجني ، وتقف في طريق عملي ، وتفسد عليّ مشاريعي ، وفي ذات مرة أمسكت بفأس صغيرة . . .

- ألم تشعر بالألم؟

- كيف لم أشعر بالألم؟ هل تعتقد أني جذع شجرة ، إنني إنسان ، لقد تألمت ، ولكن كما قلت لك كانت تقف في طريقي فقطعتها .

- إنها لطريقة سيئة يا زوربا ! إنها تذكرني بالأسطورة الذهبية التي تقول عن ناسك رأى امرأة قد أزعجته جسدياً . . . لذلك تناول فأساً . . .

وصاح زوربا مقاطعاً : - كم هو أحمق ، يقطع هذا ! ولكن هذا المسكين لا يعتبر عقبة !

- كيف؟ بل هو عقبة كبيرة .

- أمام ماذا؟

- أمام ولوجك أبواب السماء !

- وحدجني زوربا بنظرة ساخرة وهو يقول :

- إنه هو الذي يمكنك اعتباره مفتاح السماء .

واستطرد قائلاً : - إن الخصيان لا يدخلون السماء» .

إن حالة الكمال السماوي التي طالب بها الكاهن ، لم تكن تشغل بال زوربا أو حتى تعجبه . . لقد كان صاحبنا يفتش عن كماله الإنساني الخالص . . والكمال عند هذا النوع من الرجال ، يكاد ينحصر بالكامل في مطلب واحد وغاية واحدة هي : الحرية .

الحرية هي هاجس الرجال المتميزين أمثال زوربا ، والأحرار لا يخشون أعضاءهم التناسلية لأنهم يجدون في الانقياد إليها من وقت لآخر ، وجهاً فريداً وخلاباً من وجوه التحرر والانطلاق والتحليق .

لكن زوربا الرجل المأخوذ بوهم الحرية ، لا يطيق فكرة البقاء في أسر شخص أو علاقة أو ارتباط ما ، مهما كانت درجة المتعة التي يؤدي إليها هذا الارتباط . انه ككل الأحرار فرد . . واحد . . أحد . . ولأنه كذلك ، فإنه يجد في هذا التفرد وما يستلزمه أحياناً من انفراد ، كل شروط الوجود المثال .

في المقطع التالي الوارد ضمن الرسالة التي بعث بها زوربا إلى صديقه من مدينة كاندي التي أمّها لإتمام بعض الأعمال ، وصف لهذا الإحساس بالحرية :

«توجهت نحو الفندق وعلفت البغلة . وأكلت أنا أيضاً واغتسلت . وتناولت سيجارة وخرجت لأتجول . لم أكن أعرف أي شخص في المدينة ولا أحد يعرفني . شعرت بالحرية المطلقة» .

وهنا يتوافق نيتشه مع زوربا الغاضب من عبودية النساء قائلاً من خلال الباب الذي أطلق عليه (الشيخة والفتاة) :

«إن أشد كرهي موجه إليك أيتها المرأة ، لأنك تنجذبين وليس فيك من طاقة تربط على ما تنجذبين .

إن سعادة الرجل تابعة لإرادته ، أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل» .

* * *

المرأة كائن اجتماعي أكثر من كونها كائناً فردياً ، ووظيفتها الأساسية ووسيلتها المثلى للتعبير عن الذات وتحقيقها ، تظل مرتبطة دوماً بوجود طرف آخر . . إنها تستخدم الطرف الآخر لتمنح ذاتها إلى طرف ثالث غيره هو طفلها . . وهكذا فإنها لا تستطيع أن تقطع روابطها بالآخر سواء ذاك الذي تحتاج إليه بوصفه وسيلة (الزوج) ، أو ذاك الذي تحتاج إليه بوصفه غاية (الطفل) .

يقول نيتشه عن المرأة وكأنه يعاتبها لأنها خيبت أمله فيها :

«تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل ، غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة ، ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى اللعب» .

أليس هذا عتاباً مصدره الحاجة الماسة إلى حنان المرأة وأمومتها العاطفية التي حرم منها نيتشه طوال حياته؟

كيف يمكن أن تصدر مثل هذه العبارة عن رجل يكن الكره للمرأة ، إذ إنه يزين لها في خاتمة العبارة احتواء الرجل باعتباره طفلاً ، وباعتبارها لا تضع فوق حبها للأطفال حباً آخر؟

إن هذه العبارة تحتوي على استجداء مكشوف لعواطف المرأة ، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل الذي أطلق هذا الاستجداء يكن كل ذلك الاحتقار للمرأة؟ !

لقد كان نيتشه يتوقع من المرأة الكثير ، ولذلك فهو لا يتوانى رغم احتقاره المعلن لها ، أن يدفعها دفعاً إلى التعلق بأمثاله من الرجال .

يقول نيتشه في الباب السابق نفسه :

«ليكن في حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام من يثير الوجل في قلبك» .

إنه يعرف تماماً أن أمثاله من الرجال لا بد وأن يثيروا الوجل في قلوب النساء اللاتي يطلبن الاستقرار والشعور بالأمان والحماية قبل أي أشياء أخرى ، لكنه لا يتوانى عن أن يطلب من المرأة أن تتسلح بالاستبسال للارتباط بمثل هذا النوع النادر من الرجال . وهو ليس نادراً لفرادته ونبله وعظمته وتوقده العاطفي وعبقريته فحسب ، وإنما هو نادر لأنه لا يمتلك المعرفة اللازمة والخبرة الضرورية لاستمالة المرأة وللاستيلاء على قلبها .

لكن نيتشه في الفقرة التالية يدين المرأة لأن ذلك هو الحل الأمثل بالنسبة إلى رجل لا يمتلك الجرأة والعزم الكافيين للتعامل مع المرأة رغم حاجته الماسة إليها وشغفه الجارف بها :

«إن كان قلب الرجل مكمناً للقسوة ، فإن قلب المرأة مكمن للشر» .

هكذا بكل بساطة ينهي نيتشه اللعبة قبل حتى أن يستهلها . إنه يشهر الراية البيضاء ويعلن استسلامه الذي كان يحتوي على مراوغة بارعة تذرعت بإدانة صريحة للمرأة ، وكأنه يزهدها ولا يطلبها !

وفي نهاية الفصل يهاجم نيتشه المرأة في واحدة من أشهر عباراته :

«إذا ما ذهبت إلى المرأة فلا تنس السوط» .

إنها حيلة العاجز ورغبته غير المعلنة في الانتقام من معشوقه الذي لا يعيره انتباهاً . . وكيف يمكن الانتقام من مخلوق حساس يمكن للكلمة أن تقتله كما يمكنها أن تحييه ، أكثر من توجيه كل هذه السياط التي تنكرت في شكل حروف وكلمات وجمل؟

* * *

بالنسبة إلى زوربا فإن الأمر مختلف كلياً . فزوربا الذي خبر النساء كما لم يختبر أمراً آخر في الحياة لم يكن يُكنّ تجاه المرأة مشاعر احتقار حقيقية ، ولكنه ككل رجل يشعر أحياناً بالغضب من المرأة ويعاني كما يعاني كل الرجال من عدم القدرة على فهم دوافعها التي لا ينسى أن يستهجنها أحياناً بسبب عدم قدرته على الإحاطة بها .

الجزء الذكوري الحي والخلاق من زوربا لا يستطيع أن يتفهم رغبة المرأة في الالتصاق بالآخر أو بمعنى أصح ، بالآخرين . .إنها خاصية مضادة لخاصية البحث عن الحرية التي تحولت عند زوربا وعند كثير من الرجال المتميزين سواه ، إلى هاجس ملحاح نزق ، يكاد يستعبد صاحبه .

في هذا المقطع من الرسالة السابقة ، وبعد أن يقص زوربا على صديقه الكاتب آخر مغامراته النسائية في مدينة كاندي ، يورد زوربا هذه الواقعة التي جعلته يصل إلى أقصى حدود الدهشة الممتزجة بالاستنكار :

«أمس كان يوم عيد في قرية من كاندي ، ولأذهب إلى الجحيم إن كنت أعرف عيد أي قديس . وجاءت لولا – نسيت أن أخبرك اسمها – إنه لولا ، لتطلب مني أن أصطحبها إلى العيد : فقلت لها :

– اذهبي لوحدك .

– إلا إني أريد أن أكون معك .

– كلا ، لن أذهب ، كوني بمفردك ، عندي بعض الأعمال .

– كلا . . لن أذهب لوحدي .

اندهشت وجحظت عيناي .

– لن تذهبي؟ ما السبب؟

– إن رافقتني سأذهب ، وإلا لن أذهب بمفردي .

– لماذا؟ ألست حرة بما تفعلينه؟

- كلا . . لست حرة .

- ألا تريدين أن تكوني كذلك؟

- كلا . . .

والله . . . لقد بدأت أشعر بأني أصبحت مجنوناً وصمت .

- ألا تودين أن تكوني حرة؟

- كلا لا أريد !

أيها الرئيس ، أكتب لك الآن من غرفة لولا ، وعلى ورق لولا ، كن حذراً أتوسل إليك . فأنا أؤمن بأن من يريد أن يكون حراً هو الإنسان فقط ، المرأة لا تود أن تكون حرة . . أخبرني هل المرأة إنسانة؟ » .

في رأيي إن عبارات زوربا الأخيرة ، لم تكن تحمل إدانة صريحة للمرأة بقدر ما كانت تعبر عن حالة يأس كامل من النجاح في فهمها . . إنها بالنسبة إليه لغز محير . . وعندما يحول زوربا المرأة إلى مجرد لغز ، فإنه يساهم ربما من دون وعي منه ، في إحالة المرأة إلى عالم الأشياء لا الأشخاص أو الذوات .

هذا النزوع إلى تشييء المرأة لا يعبر عن خاصية ينفرد بها زوربا عن باقي الرجال . . وإن شئت فإنه لا ينفرد بها عن باقي البشر . . فكل جنس ينظر إلى الجنس الآخر عبر هذه العين التي تتعامل مع كل ما تقع عليه باعتباره موضعاً للرغبة . . وعلى هذا الأساس فإن الإناث ينظرن إلى الرجال باعتبارهم أشياء يمكن أن يؤدي الحصول عليها ، إلى توفير مزيد من المسرة لهن .

من هذا المنطلق يجب أن ننظر إلى عبارات زوربا الأخيرة ، فزوربا في النهاية إنسان ، ورجـل . . والرجل في زوربا يبحث عند المرأة عن احتياجاته الضرورية التي تلبي أغراضه العاطفية والجسدية على حد سواء . . ومن هنا يقع زوربا من حين لآخر ، فريسة للارتباك ، حيث لا يستطيع أن يفصل بين مطالبه واحتياجاته التي تحتاج إلى إشباع لا توفره سوى المرأة ، وبين المنظار الذي يرى المرأة بواسطته . . ولذلك تتحول المرأة لدى زوربا فجأة ، من كائن إنساني يشعر تجاهه بأقصى درجات الحب والعطف والحنو ، إلى لغز محير مربك . . والأهم من هذا وذاك ، أنه لغز غير قابل للحل :

«كنت أتمتع بصوت جميل ، كأنه صوت بلبل . ويجب أن أقول لك هنا بأن النساء تشغفهن الأصوات الجميلة ، ولكن ما الذي لا يشغفهن الفاجرات؟ فالله وحده يعلم ما الذي يجري في داخلهن . فمن الممكن أن تكون بشعاً أو كسيحاً ، أو أحدبَ ، وإذا كان صوتك عذباً وتعرف كيف تسرح في الغناء ، فإنك ستسلب ألبابهن !» .

وككل من هو شغوف بحل الألغاز ، يثير الفشل في إيجاد الحل الصحيح للغز ما ، نوعاً من الغضب الناجم عن العجز . . وسرعان ما يتحول الغضب بفضل هذا العجز إلى سخط يرتد إلى صاحبه ، حيث تصل المرارة إلى مرحلة البلوغ وتستحيل إلى غصة كاملة النمو والنضج .

هذه هي الحقيقة الزوربية الأكيدة . . فالمرأة كالحياة تماماً ، هي مصدر متعة الرجل وهي مصدر آلامه أيضاً . . وبالنسبة إلى النساء ، فإن الرجل كالحياة أيضاً ، هو مصدر الألم والمتعة معاً .

في المقطع التالي يقص زوربا على صديقه هذه الواقعة التي حدثت في شبابه ، وكأنه يمارس الاعتراف أمام كاهن كاثوليكي ، ليتطهر من أكبر خطيئة اقترفها طوال حياته :

«كنت بائعاً متجولاً في سالونيك أيضاً . وحتى كنت أتجول في الأحياء التركية . وقد أعجبت بصوتي ، كما يبدو ، إحدى النساء الأتراك . إلى حد أنها راحت تسهر الليالي من دون أن تستطيع النوم ، عندها نادت خادمتها العجوز وملأت يدها بالليرات الذهبية وقالت لها «آمان . . اطلبي من البائع الجوال الحضور فيجب أن أراه . . . فقد نفد صبري» . وفعلاً فقد أتتني الخادمة ، وقالت لي «أيها الرومي ، رافقني» فأجبتها «إلى أين؟» فقالت بصوت خافت «ابنة الباشا الرائعة الجمال بانتظارك في غرفتها . . هيا تعال معي» إلا أنه كان قد نما إلي بأن الأتراك يقتلون المسيحيين الذين يتجولون في الأحياء التركية في الليل . فقلت معترضاً «كلا . . كلا . . لن أذهب» . فأجابت مندهشة «ألا تخاف الله؟ ألا تعلم أيها الرومي بأن من تدعوه المرأة لينام معها ، ولا يفعل يكون قد ارتكب ذنباً عظيماً ، ففي يوم الحساب ستتنهد تلك المرأة ، وتلك التنهيدة ، مهما كانت الأعمال الصالحة التي قمت بها ستجرك إلى الجحيم» . أجل أيها الرئيس . . إذا كانت جهنم حقاً موجودة ،

فسيكون مصيري هناك ، ليس لأني سرقت واحتلت ، ونصبت . وليس لأني قتلت وعاشرت نساء الآخرين . . كلا . . كلا . . فالله يسامحني من أجل تلك الأمور . فسأذهب للجحيم لأن تلك المرأة استدعتني وانتظرتني على فراشها ولم ألب طلبها» .

هكذا يتحول الرجل إلى مصدر ألم وتعاسة بالنسبة إلى المرأة ، ذلك المخلوق الرقيق الذي يستحق بكل جدارة أن نهرق عصارة دمنا في سبيل إمتاعه . . فبالنسبة إلى زوربا كما كل الرجال الحقيقيين ، الأهم هو أن ينجح في أن يصل بالمرأة إلى آفاق من المتعة لم تبلغها قبله وربما لن تبلغها بعده .

استمع إليه هنا وهو يؤكد على أن صديقته العجوز التي تولّه في عشقها قديماً ضباط كبار ، لم تصل قبل أن تتعرف إليه ، إلى ما وصلت إليه من متعة معه هو :

«إن أي عشيق آخر لم يستطع أن يمنح السيدة هورتنس ما قدمته لها أنا . أنا زوربا العجوز . سوف تسأل لماذا؟ لأن كل منهم كان يفكر وقت معاشرتها ، بالأسطول أو بكريت أو بزوجاتهم ، إلا أنا فإنني كنت أنسى كل شيء . وكانت هي الفاجرة تعلم هذا جيداً . يجب أن تعرف هذا أيها الحكيم . فليس يوجد شيء يسعد المرأة أكثر من هذا» .

إنه التحدي الذي يخوضه الرجل ليفوز وحده بذاكرة المرأة . . وعندما تفوز بذاكرة شخص ما ، فهذا يعني أنك نجحت في امتلاكه . أما بالنسبة إلى المرأة فإن الوضع مختلف ، فهي تعطي

بدافع العطاء وحده ، لا بدافع الامتلاك أو بغرض التفوق على الآخرين كما هي الحال بالنسبة إلى الرجال . بالنسبة إلى المرأة فراش الحب ليس ميداناً لمنازلة المنافسين ، بقدر ما هو مذبحاً مقدساً ، تقدم فيه نفسها قرباناً لشخص هو إلهها وطفلها معاً :

«إن المرأة الحقة تتمتع باللذة التي تقدمها للرجل أكثر مما تتمتع باللذة التي تأخذها منه» .

إنها المرأة . . مانحة الحياة للآخرين ، ومانحة نفسها للحياة .

إنها المرأة . . منحة الوجود الكبرى .

الفصل التاسع
الحرية

لماذا ينجرّ الرجل وراء حلم الحرية ولماذا تتحول لديه إلى هاجس مسيطر لا سبيل إلى طرده أو حتى ترويضه؟

الحرية لا تنبعث فقط من رغبتنا في الانطلاق والتحلل من كل الالتزامات والارتباطات . . الحرية جزء من مفهوم الكرامة الذي يسيطر على الرجال المتفوقين . . فمن دون حرية لا وجود للكرامة . . ومن دون كرامة لا وجود للرجولة . . وإذا ما فقد الرجل الإحساس برجولته تفقد الحياة بالنسبة إليه قيمتها وينهار كل شيء ويتحول طعم كل شراب إلى مرار سرعان ما يستحيل إلى ظمأ قاتل .

العبودية بشعة لأن لها نكهة الذل وطعم العار . . ورغبة الرجل في الوصول إلى الحرية تنبعث من خوفه الكبير من الانزلاق نحو هاوية العار .

يقول زوربا في رسالته التي وجّهها إلى صديقه الكاتب من كاندي :

«الشيء الوحيد الذي يخيفني أيها الرئيس هو الشيخوخة . لتحفظنا السماء منها ، الموت لا شيء بالمرة ، نفخة واحدة وتنطفىء الشمعة ، إنما الشيخوخة فهي عار» .

ويتابع زوربا :

«ذات يوم فوق جبل «آتوس» لأني ذهبت لهناك ، وكان أحسن لدي لو قطعت يدي اليمنى ولم أذهب . قابلت راهباً ، الأب «لافرنتيو» من مواطني «شيوس» وكان هذا المسكين يعتقد بأنه يوجد داخله شيطان ، حتى أنه أعطاه اسماً . وكان يدعوه «هودجا» ، «هودجا يريد أن يأكل اللحم ، يوم الجمعة العظيمة» . اعتاد الراهب المسكين أن يقول ، ضارباً رأسه بحائط الكنيسة : «إن هودجا يريد أن ينام مع امرأة ، يريد أن يقتل رئيس الدير . . إنه هودجا . . هودجا وليس أنا» . ويضرب رأسه بالحجارة .

وأنا يوجد في داخلي نوع من هذا الشيطان ، وأسميه زوربا . فزوربا الداخلي لا يريد أن يشيخ أبداً . بل ولم يكبر أبداً . ولن يكبر أبداً .

إنه وحش ذو شعر أسود كالغراب وله اثنتان وثلاثون سناً ويضع قرنفلة حمراء خلف أذنه . إلا أن زوربا الخارجي قد أصبح عجوزاً . وأصبح شعره أبيض وتجعد جلده وتساقطت أسنانه وامتلأ رأسه بالشعر الأبيض وعلا جسده شعر طويل كشعر الدواب» .

* * *

المرأة هي كذلك تخشى من الشيخوخة لأنها السيف المسلط على سحر أنوثتها . . وسحر الأنوثة يرتبط بقدرة المرأة على أداء وظيفتها الرئيسة : الإنجاب .

وعندما تفقد المرأة القدرة على الإنجاب فإنها تنزوي إلى قاع العار . . حيث لا أحد يرغب في مضاجعتها ، وبالتالي في الاهتمام بها وحمايتها .

الرجل المتفوق الذي يشعر بتميزه يخشى الشيخوخة لأنها تقف في طريقه نحو بلوغ الحرية . . والحرية بالنسبة إلى هذا النوع من الرجال هي تلك الحالة من الغنى والقدرة الكاملتين . . الحرية وسيلة لبلوغ القوة والتحكم وإعلان سيادة الرجل على نفسه ، وليست هدفاً مقدساً في ذاته كما يعتقد الآخرون .

من هذا المنطلق بالتحديد كان زوربا يخشى أن يفقد شبابه . . ذلك أن الشباب هو الضمانة الوحيدة لتحقيق مطلب الحرية ، حيث نتحرر من احتياجاتنا التي توقعنا في قبضة عبودية الآخرين .

يتابع زوربا في الأسطر التالية رسالته إلى صديقه الكاتب قائلاً :

«إن فارقت الحياة سريعاً فهذا أفضل . ولن أخاف . لكن إن كبرت أكثر فهذه هي المصيبة . . المصيبة أيها الرئيس هو أن يأتي اليوم الذي أُحتقر فيه . فأصبح عبداً ، تلقي عليّ حماتي وابنتي الأوامر لأراقب الأطفال وأعتني بهم . أراقب طفلاً رضيعاً ، بل وحشاً كاسراً لكي لا يحرق نفسه ولا يسقط وتتسخ ثيابه . . وإذا ما وسّخ نفسه ، فسوف يجبراني على تنظيفه . . أف يا للعار» .

مطلب الحرية بالنسبة إلى زوربا لا يرتبط بغايات مثالية كما هي الحال عند الفلاسفة واليوتوبيين الذين يتحدثون عن جميع أبعاد الحرية وأشكالها الميتافيزيقية والحسية . مطلب الحرية عند

زوربا ينطلق من الرغبة في الوصول إلى مرحلة الاستغناء والاكتفاء الذاتي ، كما هي الحال عند بوذا الذي يعبر عن ذلك من خلال هذه المقولة :

«سعداء نحن الذين لا نملك شيئاً» .

وزوربا هو الآخر لا يسعى إلى امتلاك أي شيء حتى لا يصبح رهينة له :

«كثير من الناس مؤمنون بالجنة ويحتفظون بدوابهم لترعى هناك . وأنا ليس عندي دابة . فأنا حر ، ولست خائفاً من الجحيم ولا من موت دابتي . ولا أتوق للجنة أيضاً» .

وفي هذا فإن زوربا يلتقي مع الحكيم والناسك الهندي تشندر سوامي حيث يقول الأخير :

«التوق إلى الجنة ليس إلا رغبة في التمتع بالأشياء الحسية على نطاق أوسع وبشكل دائم» .

زوربا قطع حبل العبودية من طرفيه ، فهو من ناحية تحرر من سلطة الأفكار المقدسة التي تستعبد كثيراً من المؤمنين بها لأنها تمنيهم بالتمتع بالأغراض الحسية على نطاق أوسع وإلى ما لا نهاية كما قال سوامي في العبارة السابقة .

ومن ناحية أخرى فإن زوربا تحرر من الرغبة في الامتلاك التي تقودنا إلى عبادة الأشياء التي نعتقد أننا بالقدرة على امتلاكها نحقق السعادة ، فإذا بهذه الأشياء تمتلكنا بالكامل وتحولنا إلى عبيد على النقيض من زوربا الرجل الحر الذي لا يملك ولا حتى دابة .

***

نيتشه لم ينتبه إلى ذلك ، وهكذا راح يشن هجومه العنيف على ما وقع البشر في تقديسه من أفكار ، فحصر العبودية في الجانب الفكري ، وهو ما قاده في النهاية إلى إلغاء العبودية القديمة وإحلال نوع جديد من العبودية محلها . . عبودية تستعير بريقها من وهج الأفكار المقدسة السابقة التي تقدم حلولاً نهائية لكل مشاكل البشر .

يقول نيتشه عن مدى استمراء الناس للعبودية :

«في كل مكان عثرت فيه على حي ، طرقت أذني كلمات الطاعة ، فما من حي يتعالى على الخضوع ، وعرفت أيضاً أن ليس من محكوم في الحياة سوى من لا قبل له لإطاعة نفسه . . تلك هي عادة كل حي» .

وفي الأسطر التالية يواصل نيتشه حديثه عن الحرية ومدى الصعوبة التي تواجه كل من يتخذ القرار الأخطر . . قرار أن يكون حراً :

«إن تولي الحكم أصعب من الطاعة ، لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له وكثيراً ما ترهق هذه الأثقال كواهل الآمرين .

إن في كل أمر خطراً ومجازفة ، وكل مرة يصدر الحي فيها أمراً يقتحم خطراً وإذا ما تحكم الحي في ذاته فإنه يؤدي جزية لسلطانه إذ يصبح قاضياً ومنفذاً وضحية للشرائع التي يستنها» .

كم هو صعب خيار الحرية لأن الناس مفطورون على الخضوع . ذلك أن الخضوع يمثل نوعاً من أنواع الحماية ، وكلما

قلّت قابليتك للخضوع كلما ابتعدت عن الشعور بالأمان . . فالخضوع في حقيقته ليس سوى مطلب يوفر المساندة التي تقاوم شعور الإنسان بالخوف والوحدة .

الحرية التي ينادي بها نيتشه هي حرية فكرية قبل أي شيء آخر ، وهي ليست حرية بقدر ما هي تحرر من التعلق بالأفكار القديمة أو الأفكار المقدسة . وهذا يعني أنك ستفصم جميع الروابط بينك وبين كل التعاليم الأخلاقية والوصايا الدينية التي شكلت حتى الآن حجر الأساس في الضمير البشري ، وستتخلى عن جميع الثوابت التي يحتفظ غالبية البشر على اختلافاتهم العديدة ، بأقدار متفاوتة منها .

في العبارات السابقة يلمح نيتشه إلى أن الحرية حق للقلة من البشر المتميزين أو المتفوقين ، وفي هذا فإن نيتشه لم يجانب الصواب كثيراً حسب رأيي ، وهو مصيب بالتحديد عندما قرر أن العاديين من البشر لا يطلبون الحرية بمعناها الواسع .

لكن الحرية بالنسبة إلى نيتشه هي مرحلة تسبق وتمهد لمرحلة الإنسان المتفوق أو الإنسان الراقي أو السوبرمان . . أما بعد ذلك فإن الحرية تتراجع من موقعها كضرورة إذ تصبح متاحة في حدود التزام الإنسان الجديد أو الإنسان المتطور لتعاليم نيتشه التي تعتبر أن الإنسان المتفوق هو الهدف الأسمى الذي سيكتب نهاية التاريخ على حد تعبير فوكوياما ، وتهدف إلى الحفاظ على الإنسان المتفوق وربما تطويره حتى لا ينتكس ويعود إلى سابق عهده . . أي مجرد إنسان .

يقول نيتشه عن الحب :

«ما رأيت زوجين لا تكافؤ بينهما إلا وتبين فيهما عاطفة الانتقام إذ يتحول نفور كل منهما إلى عداء للناس وقد امتنع على كل واحد منهما أن يسير طليقاً وحده .

لذلك وجب على أهل الإخلاص أن يثقوا بصدق ما يشعرون به وأن يوجهوا قواهم للاحتفاظ بعواطفهم كيلا ينخدعوا بما يعاهدون عليه . وليطالبوا بالاتحاد إلى حين ليثقوا من إمكان اتحادهم إلى أمد طويل ، فليس من هينات الأمور أن يجتمع اثنان إلى مدى العمر» .

شخصياً فإنني لا أشك في مدى صواب هذا التحليل وعمقه ، وأكثر من ذلك فإنني لا أشك أبداً في نبل وفروسية نيتشه إذ إن دوافعه تتعلق بالإخلاص للنفس وللآخر ، وترمي إلى الحفاظ على العهود التي يطلقها ويتلقاها الفرد لشريكه ومن شريكه . ويتضح ذلك بجلاء من خلال تشديده على ضرورة الاحتفاظ بالعواطف حتى لا يخدع الإنسان غيره وحتى لا يتعرض للخديعة .

لكن انظر إليه الآن كيف ينهي تأملاته عن الزواج :

«ذلك ما أوصي به المخلصين لأنني إن فعلت بغير هذه الوصية عدمت محبتي للإنسان المتفوق ولكل ما أتوقعه لآتي الزمان .

ليس ما فرض عليكم أن تتناسلوا وتتكاثروا فحسب بل عليكم أن ترتقوا أيضاً ، فلتكن جنة الزواج مدخلكم إلى المرتقى» .

هذه التعاليم الصارمة لا تعبأ حتى بالحب إذا كان سيعوق الهدف الأسمى ، وهو إنتاج الإنسان الرقي ومن ثم الحفاظ عليه .

وعندما يتزوج الإنسان بهذا الغرض فإن قيمة الحب تتراجع إلى أسفل سلم أولويات الفرد ، وتصبح الدوافع السلوكية كلها مرهونة بتحقيق الهدف الأسمى ، أو إن شئت الدقة : الفكرة المقدسة أو الخلاص النهائي .

إن هذا يعني بكل بساطة أن حرية الإنسان نفسها التي يعد الحب أحد أبرز وربما أبسط مظاهرها ، تصبح ضيقة وخاضعة لقانون الحفاظ على النوع الجديد من البشر . . أي الإنسان المتفوق .

أين هي الحرية التي يقدسها نيتشه ويدعي أنها حق وميزة لكل المتفوقين؟ !

نيتشه لم ينتبه إلى ذلك وراح يشن هجومه الشرس على ما وقع البشر في تقديسه من أفكار ، فحصر العبودية في الخضوع للأفكار القديمة ، وهو ما قاده في النهاية إلى استبدال العبودية الجديدة بالعبودية القديمة . . عبودية الفكرة التي تستعير بريقها ومبرراتها وغاياتها من وهج الأفكار المقدسة السابقة التي تهدف إلى تحقيق الخلاص النهائي والتي صبَّ عليها نيتشه جام غضبه !

الخضوع هو ما يهرب منه الأحرار وتقع فيه الغالبية العظمى من الناس لأنهم لا يقوون على دفع ضريبة الحرية . ونيتشه نفسه وقع فيما حذر منه لأنه خضع لفكرة الإنسان المتفوق رغم أنه هو خالقها .

يقول نيتشه في عبارة من أكثر عباراته صراحة حول مشكلة الحرية عبر الباب الذي أطلق عليه (العزلة) :

«إنك تدعو نفسك حراً ، فقل ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك . ولا تكتف بقولك إنك خلعت نيرك . فهل كنت يا ترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم .

لا يهم زرادشت أن تقول له من أي عبودية تحررت ، فلتعلن لي نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها» .

والآن تأمل هذا الحوار بين زوربا وصديقه الكاتب ، والذي يرد فيه على نيتشه رغم أنه لا يعرف نيتشه ولم يسمع عن تعاليمه شيئاً . إنه الحوار الأخير الذي جرى بين زوربا وصديقه الكاتب بعد أن فشل مشروعهما التجاري ، ما فرض عليهما أن يفترقا :

«- ربما سآتي معك . . ربما سأبقى معك . من يعلم . .؟ إني حر .

- كلا إنك لست حراً . فالحبل الذي ربطت به نفسك أطول بقليل من حبل الآخرين . هذا كل ما في الأمر . . أيها الرئيس . حبلك كما قلت لك طويل . . فأنت تذهب وتجيء معتقداً بأنك حر . . ولكن من دون أن تقطع الحبل . . عندما تقطع الحبل فقط . . .

- سأقطعه ذات يوم .

- هذا صعب جداً أيها الرئيس . صعب جداً . . فهذا يحتاج لجنون كبير . أن تخاطر بكل شيء . . إلا أن عقلك كبير . . . وهذا ما يتغلب عليك . فالعقل كأنه صاحب محل بقالة لديه دفاتر يسجل فيها كل شيء . . دفعت كذا . . . وادخرت كذا . . . وهذه أرباحي . . . أو خسائري . كما قلت لك عنده دكان صغير ، فهو لا يغامر بكل ما يملك . بل دائماً يفكر ويحتاط . إنه لا يقطع الحبل . يل يمسك به بقوة . . . الجبان . وإذا ما تركه . . فقد هلك المسكين . ولكن من دون أن تقطع ذلك الحبل . . فأي معنى للحياة؟ ستكون كلها بابونج . . بل عشب بلا طعم . . ليس كطعم الخمر الذي يجعلك ترى الدنيا مقلوبة» .

***

في رأيي إن الخوف هو الذي شكّل العمود الرئيس للقابلية الذاتية للوقوع في ذل العبودية .

فيما يختص بعالم الأفكار فإن فكرة الخوف من الفناء هي التي تدفع بالبشر إلى اعتناق الدين الذي جاء ليلبي الحاجة الماسة لديهم إلى التعايش مع فكرة الموت وتقبّلها طالما أنها هي ذاتها بوابة الخلود المنشود .

أما فيما يختص بعالم الأشياء فإن فكرة الخوف من الضعف أو بمعنى آخر الخوف من الحياة هي التي تغرر بالبشر وتدفعهم إلى الوقوع في حبائل عبودية الأشياء التي نعتقد أن نجاحنا في توفيرها

سيمنحنا القوة اللازمة للقضاء على أسباب القلق الدنيوي . . أو بمعنى أصح القضاء على الخوف من الحياة وتقلباتها التي لا ترحم والتي قد توقع المرء في ذل الحاجة والعجز والضعف .

البحث عن أمل يقضي على رهبة الموت باعتباره بداية وليس نهاية تفضي إلى العدم وهو المسؤول عن وجود القابلية البشرية لاعتناق الأديان .

أما عبودية الأشياء فقد تجسدت عبر المسعى الإنساني لإشباع غريزة حب الامتلاك حتى ولو تخطى الفرد حدود الأخلاق وخرق كل معايير الفضيلة وضرب عرض الحائط بكل الوصايا الدينية . . وهذه العبودية الشيطانية إن جاز التعبير هي التي يسعى الإنسان بوحي من تأثيرها إلى القضاء على كل أسباب الخوف من الحياة عن طريق امتلاك ما يعتقد أنه يحتوي في ذاته على كل مصادر القوة الكامنة في الأشياء . . وفي مقدمتها المال .

الخوف من العدم هو المسؤول عن صناعة القابلية الإنسانية لاعتناق الأديان ، والخوف من الضعف هو مصدر كل أشكال العبودية للشيطان .

يقول زوربا عن فكرة الخوف من الموت عبر هذا الحوار مع صديقه الكاتب :

«- أتعتقد أيها الرئيس بهذا؟ . بأن الرب قد أصبح إنساناً وخُلق في إسطبل؟

أتعتقد بهذا حقاً ، أم أنك تسخر من هؤلاء الناس؟

- من الصعب جداً أن أعتقد بهذا يا زوربا . . بل من الصعب أن أقول لك بأني اعتقدت به أو لا . وأنت؟

- لا أستطيع أن أقول بأني أعتقد بهذا أيضاً . عندما كنت صغيراً ، لم أكن أصدق روايات الجنيات التي كانت تقصها جدتي ، ومع هذا فقد كانت فرائصي ترتعد من الخوف . فأضحك وأبكي . تماماً كأني أصدقها . وعندما نبتت أول شعرة في لحيتي ، لم أعد أهتم لمثل هذه الروايات بل وأحتقرها أيضاً . أما الآن وفي نهاية أيامي أعود لأؤمن بها ثانية ، يا لهذا الإنسان من لغز» .

في هذا الجانب تنفرد الديانات الشرقية وخصوصاً البوذية بخاصية التحرر من الخوف بشقيه . . ربما لأنها تصالحت مع فكرة الموت عبر سعيها إلى تحقيق الإماتة . . والإماتة في البوذية مصطلح يعني التخلص من التوق والانعتاق من التعلق .

لكن زوربا الذي تحرر إلى حد كبير من الخوف ببعديه السماوي والأرضي ، استطاع أن يصل إلى الغاية نفسها ويقطع الشوط ذاته لأنه تحرر من هاجس الخوف من الموت رغم عدم قدرته على تقبل الموت وهو يأتي على المحيطين به . لكن فيما يتعلق بخوفه هو شخصياً من الموت ، فإن زوربا تحرر تماماً .

يقول زوربا عن ذلك لصديقه الكاتب :

«إنني أنظر إلى الموت بلا خوف ولكن لا أقول بأنه يعجبني . كلا . . . أبداً لا أوافق على هذا .

كلا . . لست أنا من يمد عنقه للموت كأنني نعجة وأقول «هيا اقطع عنقي لأذهب إلى الفردوس» .

وفي هذا فإن زوربا يلتقي مع فلسفة اليوغا ، حيث هناك عبارة شائعة لا أذكر قائلها بالمعنى نفسه :

«الإنسان اليوغي لا يخشى الموت ، لكنه لا يطلبه» .

***

لكن الموت يظل وظيفة ضرورية حتى لا تصاب الحياة نفسها بداء الشيخوخة . . ربما يقضي الموت على الأحياء بقسوة ، وهذا أكيد وليس مجرد احتمال ، لا تستطيع مشاعرنا أن تتقبلها ، لكن ذلك لا بد وأن يكون ضرورياً حتى لا تصاب الحياة نفسها بالشيخوخة وتفقد مفاتنها وتصبح عرضة للاشمئزاز الذي يجلب العار .

الشيخوخة وحدها هي التي تخيف زوربا ، وهذا نوع جديد من الخوف لا من الحياة ولا من الموت ، بل هو خوف على الحياة نفسها .

***

أما نيتشه فيقول مفسراً قدرة الحياة على تجديد نفسها :

«والحق أنكم حيث تشهدون انحدار وسقوط أوراق من الأدواح ، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة» .

وفي موقع آخر من الكتاب يقول نيتشه :

«إن هناك أموراً كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها ، وما كان ليرى أشياء أفضل من الحياة ، لو لم تكن هناك إرادة القوة» .

إنها إرادة الحياة كما يقول الفيلسوف الألماني الوحيد الذي تأثر نيتشه بفكره إلى حد ما ، شوبنهاور ، وليست إرادة القوة .

إرادة الحياة في تجديد نفسها وليست إرادة القوة هي التي ترغم الحياة على الذبول في أوراق الدوح لتمنح الجديد من الأوراق مكان القديم .

الموت جزء من عملية الصيانة الذاتية التي تقوم بها الحياة ، وهو ليس كما يرى نيتشه خضوعاً لإرادة القوة التي تستخدمها الحياة في الولادة والإنشاء والخلق تماماً كما تستخدم إرادة الضعف في القضاء على الأحياء المؤهلين للرحيل .

إنها إرادة الحياة في الحفاظ على شبابها .

الخوف من الضعف هو الذي أوحى لنيتشه بفكرة إرادة القوة .

إنه الضعف الذي تشرّبه نيتشه في نشأته نتيجة تربيته في كنف نساء كن يفتقرن إلى حماية الرجل . ثم هو الضعف الذي لازم نيتشه طوال أيام شبابه ورجولته من جراء إصابته بعدوى مرض الزهري أثناء تطوعه في الجيش .

* * *

زوربا لم يشعر بالضعف الذي شعر به نيتشه وفزع من الارتهان إليه إلى درجة أنه وقع في عشق القوة ومعاداة الضعف .

زوربا كان يخاف . . هذا صحيح . . لكنه كان يخاف الوقت وليس ما يلي الوقت .

هذا الخوف هو الذي يدفع بزوربا إلى اغتراف اللذات بكافة أشكالها وكأنه سوف يموت غداً :

«لقد شبت أيها الرئيس وأسناني بدأت تتزحزح . أما أنت فما زلت شاباً . تستطيع أن تنتظر . لذلك فأنا أعرف بأني كلما كبرت كلما ازددت وحشية ، لا تترك أحداً يقول لي بأن السن الكبيرة تستطيع أن تجعل الرجل مستقيماً ، ولا ذلك الذي عندما يرى الموت قادماً يمد يديه قائلاً : «هيا دعني أموت لكي أذهب إلى السماء» . فكلما طال عمري ازددت ثورة ، سوف لن أستسلم أبداً . . أريد أن أغزو العالم» .

خوف زوربا من الشيخوخة وليس من الموت هو الذي ألهمه القدرة على أن يحبس ذاته في اللحظة التي يحياها . . إنه يجمد الوقت ويلغي سلطان الزمن حتى يستطيع التعايش مع الخوف . . أي خوف .

يقول زوربا مخاطباً صديقه الكاتب :

«ها قد عدنا من جديد . . لماذا؟ وعدت أنت لتتكلم كأنك غلام صغير ، كيف أوضح لك ذلك؟ عندما أكون غارقاً بالعمل ، أكون غارقاً بكل حواسي ، وتكون أعصابي متوترة في جميع أنحاء جسدي . يكون رأسي كله عند الفحم والصخر . أو عند السانتوري . فإذا ما لمستني أو كلمتني ، ورددت عليك فسأنفجر» .

وهكذا يتحرر زوربا من كل مسببات الخوف والقلق بما فيها خوفه من الوقت أو خوفه من الشيخوخة إن شئت الدقة .

ولأن زوربا يستطيع أن يجمد الوقت ويتحايل على قانون الزمن عن طريق قدرته على فصل اللحظة الراهنة عن السياق الذي يربطها بما يسبقها وما يليها ، فإنه لا يعدم الوسيلة في العودة بالزمن إلى النقطة التي يريد .

عبر الحوار التالي بين زوربا وصديقه الكاتب ، يوضح زوربا كيف أنه يستطيع أن يعود بالزمن إلى النقطة التي يريد :

«- ما هذا الشعر؟ من أتيت به أيها اللعين؟

فقهقه زوربا قائلاً :

- لقد صبغته أيها الرئيس . . القذر . . لا تتعجب .

- ولكن لماذا؟

- العجرفة والكبرياء أيها الرئيس ! وحق الشيطان ، في أحد الأيام كنت أتجول مع لولا ممسكاً بذراعها . أعني ، هكذا بأصابعي فقط . . . فاقترب منا صبي لعين ، لا يصل إلى ركبتي ، وراح يضايقنا ، وراح ابن الساقطة يصيح :

«أواه أيها الشيخ . . إلى أين تصطحب حفيدتك؟»

شعرت لولا بالحياء ، وكذلك أنا وكما ترى ، ذهبت في المساء نفسه إلى الحلاق لأصبغ شعري باللون الأسود لكي لا تخجل لولا مني .

غلبني الضحك إلا أن زوربا نظر إلي بجد :

- إن هذا يبدو لك مضحكاً أيها الرئيس ، أليس كذلك؟ مع هذا انظر إلي كإنسان ، فمنذ ذلك الوقت أصبحت رجلاً آخر .

فإن كل من يراني ، وأنا أحب هذا ، يعتقد بأن شعري أسود طبيعياً . فنحن نستطيع أن ننسى بسهولة ما نريد نسيانه . فأنا أستطيع أن أقسم لك بأن قوتي قد زادت ، وقد شعرت لولا بهذا أيضاً ، والألم الذي كان يصيب ظهري ، قد اختفى أيضاً . أنت لا تصدقني؟ ! فهذه الأشياء ليست موجودة في كتبك» .

هذه القدرة على استدعاء الشباب عندما تتوفر الظروف الملائمة والمحفزة ، لم يكن يصل إليها زوربا لولا تحرره من الخوف الذي يجعل من الحياة عبئاً ثقيلاً يثير القلق لدى عبدة الأشياء من ناحية ، والذي يجعل من الموت فزاعة لدى عبدة الأفكار من جهة أخرى من دون أن يعلمون حتى بذلك .

التركيز والصفاء النفسي هي العوامل التي تساعد المرء على التحرر . . والشخص الخائف لا يستطيع التركيز ، ولذلك فإنه لا يمكن أن يبلغ الصفاء النفسي . إنه خائف وقلق ، والحرية لا تستطيع أن تمنح نفسها للمصابين بالخوف والقلق والتشتت الذهني .

***

لكن ليس الخائفون والمصابون بالقلق وحدهم هم الذين لا يستطيعون بلوغ الحرية . . فالحرية في بعدها الأكثر عمقاً هي حالة من الاستغناء والابتهاج الدائمين على حد سواء .

والاستغناء لا يتولد لدى المرء إلا عندما يصل إلى مرحلة وأد الرغبات بإماتة غريزة الامتلاك .

أما الابتهاج فهو لا يتولد لدى المرء إلا عن طريق الاتحاد بالجنس البشري إلى حد الذوبان . . وهذه الحالة من التوحد التي يعرفها المتصوفون جيداً ، تتمثل في الإحساس بتضخم الأنا إلى حد تلاشيها . إنها حالة من حالات ذوبان ذات الفرد داخل إناء ذات جماعية كبرى تضم الآلاف وربما الملايين .

وعندما تذوب ذات الفرد ويتحول إلى ذرة ضمن ملايين الذرات التي تشكل ذاتاً جماعية مهولة في ضخامتها ، فإن شعور الفرد بذاته يطغى ويتضخم ويتعملق ويصل إلى ذروته ، فيفقد المرء إحساسه بذاته ككيان مستقل أو منفصل عما عداه ، ويصبح جزءاً متناغماً مع الذات الكلية التي تشمل الكون بأسره .

يقول زوربا في هذا الحوار مع صديقه الكاتب راوياً له لحظة تحرير جزيرة كريت عقب الحرب العالمية الأولى :

«عندما جاءت المركبة الملكية وهي مزدانة بالأعلام وابتدأ إطلاق المدافع ، وحين وضع الأمير رجله على أرض كريت . . . هل سبق لك أن رأيت شعباً بأسره يصبح مجنوناً لأنه رأى حريته؟ كلا؟ آه ، أيها الرئيس ، إذن فقد خلقت أعمى وستموت أعمى . فإذا قُدِّر لي أن أعيش ألف سنة ، حتى لو أن كل ما تبقّى مني عبارة عن قطعة لحم حية ، فلن أنسى ما رأيته ذلك اليوم ! وإذا كل واحد منا قُدِّر له أن يختار جنته في السماء حسب ذوقه ، وهذا ما يجب أن يكون ، فهذا ما أدعوه – جنة – سأقول للإله العظيم : يا إلهي ، لتكن جنتي جزيرة كريت المملوءة بالأعلام والزينات ، ودع هذا

اللحظة التي وطئت بها أقدام الأمير جورج أرض كريت تستمر قروناً طويلة ! فهذا يكفي» .

ثم يعود زوربا في الأسطر التالية ليروي لصديقه الكاتب واقعة أثّرت فيه كثيراً أثناء الاحتفال بتحرير كريت :

«حارس أسو ثائر جاء معي من مقدونيا ، اسمه يورغا ، وكانوا يدعونه «المجرم» ، خنزير شرس ، وهل تعلم . . . لقد بكى . وقلت له وعيوني تترقرق بالدمع : «لماذا تبكي أيها الكلب؟ لماذا تبكي أيها الخنزير؟» . ولكنه لم يجب . ولكنه لم يجب ، بل ألقى بيديه حول عنقي وراح يبكي كالأطفال ، ثم تناول محفظته ووضعها على حجره بعد أن أفرغ منها القطع الذهبية التي نهبها من الأتراك ، ثم ملأ قبضته بالقطع وألقى بها في الهواء ! أرأيت ، أيها الرئيس؟ هذه هي الحرية» .

هكذا تكلم زوربا . .

هكذا تكلم الحكيم .

هذا الكتاب ليس دراسة نقدية بالمعنى الفني أو الاحترافي للكلمة ، وبمعنى أكثر دقة فإن هذا الكتاب لا يضع ضمن اهتماماته دراسة العناصر الفنية لرواية (زوربا) للكاتب اليوناني نيكوس كازينتزاكس ، كبناء الشخصيات والبنية الروائية وما إلى ذلك من أمور فنية .الكتاب هو محاولة للغوص في الفكر الزوربي الذي يمثل الفطرة الإنسانية النقية في أشد حالات تألقها .

ويسعى الكتاب إلى عقد مقارنة أو مقابلة بين الفكر الزوربي الذي قلت قبل قليل إنه يمثل الفطرة الإنسانية الخالية من الشوائب الاجتماعية والثقافية ، وبين الفكر النيتشوي . . وبالتحديد فكر فريدريك نيتشه الذي تجلى على أكمل وجه من خلال كتابه الأهم والأشهر : (هكذا تكلم زرادشت) .

ولكن لماذا نيتشه مقابل زوربا . .؟ لماذا نيتشه دون غيره؟

ISBN 9953-476-07-1

